وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١٠٢)

التفسير: يقول سبحانه وتعالى أنه عندما يطلق مناديه نداءه يجعل فريق من القوم أصابعهم في آذانهم، ولا يعيرون نداءه آذانا صاغية..رغم أن نداء الله ليس نداء عاديا. عندما ينادي الإنسان من قبل موظف عادي يطير فرحا في كثير من الأحيان، ولكن عندما يناديه ربه يتولى عنه كأن لم يسمعه..مع أنه لو كان في قلب الإنسان نور الإيمان لأوشك على الموت فرحا بهذا النداء. أين العزة الدنيوية والشرف المادي من هذا الشرف والتكريم؟! إن الله بنفسه يذكر عباده، ويرسل إليهم رسوله.. ولكنهم لجهلهم لا يولونه أدنى اهتمام، مع أن في تلبية نداء الله فخرا وأي فخر! فكان على اليهود أن يفرحوا بأن أظهر الله صدق كتبهم ببعث نبي يصدق كتبهم وأنبياءهم، ولكن أنّى ذلك من قوم انحرفوا عن الصراط المستقيم؟!

وقوله تعالى(مصدقا لما معهم) إنما يعني أن بعث هذا النبي قد حقق صدق ما أنبأ الله به في كتب اليهود. وكأن مجيء هذا النبي دليل على صدق أنبيائهم. فالإيمان به ليس إلا تصديقا لكتبهم السماوية وعملا بها، وإذا لم يؤمنوا اعتبروا مكذبين لما أنبأ به رسلهم وكتبهم. فإن محمدا ﷺ مصدق لموسى وللتوراة ولأنبياء بني إسرائيل كلهم. ولكن لا يعني (مصدق لما معهم) أن التوراة بوضعها الحالي كلام الله تعالى أو كلام موسى أو كلام عيسى، وأن الإيمان بموسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء الإسرائيليين يغني عن الإيمان بمحمد ﷺ.. وإنما يعني أنه حقق ببعثته تلك النبوءات، وأثبت صدق موسى وعيسى وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل –عليهم السلام. وهم مخيرون الآن في أن يؤمنوا بمحمد ﷺ مصدقين كتبهم..أو يكفروا به مكذبين إياها. ولكن اليهود– كما ذكر فيما بعد– لم يكترثوا لهذه النبوءات و لم يستفيدوا منها، وإنما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لأنهم لا يؤمنون.

والمراد من (كتاب الله) هنا التوراة، ويعني نبذه وراء ظهورهم أنهم أهانوه بدلا من أن يعظموه. إن إهانة كلام الأنبياء يدمر الإنسان.. فما بالك بتحقير كلام الله

تعالى. لقد مزق كسرى بجهله وغبائه الكتاب الذي أرسله إليه النبي ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام؛ فلما بلغ ذلك النبي قال:"مزق الله ملكه "(البخاري كتاب العلم).وبعد زمن قصير جدا دمر الله ملكه تدميرا. فإذا كان تمزيق كتاب للرسول يستوجب هذا العقاب..فما بالك بمن ينبذ كتاب الله وراء ظهره ويحقره تحقيرا؟

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لمنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا به أَنْفُسَهُم لَوْ كانوا يَعْلَمون(١٠٣)

شرح الكلمات:

تتلو- تلا يتلو تلوا: تبعه. وذلك يكون بالجسم تارة، وتارة بالاقتداء في الحكم. أما بالجسم فقوله تعالى (والقمر إذا تلاها) (الشمس: ٣). وأما في الحكم فقوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) (البقرة : ١٢٢) أي يتبعونه حق اتباعه (تاج العروس).

على- تأتى بمعنى 'في' كقوله (إن كنتم على سفر) أي في سفر (مغني اللبيب).

الملك - العظمة والسلطان، واحتواء الشيء والقدرة على الاستعلاء به (اللسان).

السحر - السحر كل ما لطف مأخذه ودق؛ الفساد؛ إخراج الباطل في صورة الحق؛ الخداع؛ التمويه بالذهب أو الفضة. سحره عن كذا: صرفه عنه (الأقرب).

الملكين- الملك معروف، وقد يطلق مجازا على الرجل الصالح. وفي قراءة "الملكين".. (تفسير البحر المحيط تحت هذه الآية). وحيث إن القراءة الثانية توضح المعنى الصحيح تبين أنه ليس المراد هنا الملكين وإنما رجلان صالحان.

وقد أطلق القرآن " الملك " على الصالح التقي حيث ورد في شأن يوسف عليه السلام: (إن هذا إلا ملك كريم) (يوسف: ٣٢) ... أي رجل صالح ذو محاسن.

فالمراد من الملكين هنا رجلان صالحان كأنهما ملكان. ويؤيد رأينا ما ذكر من المهمات التي قام بها هذان الملكان؛ فقد ذكر أنهما كانا يلتقيان بالناس ويعلمانهم. ويصرح القرآن أن الملائكة لا يأتون كالناس بحيث يعيشون بينهم ويعلمونهم، وإنما يرسل لهداية الناس أناس أمثالهم. يقول الله تعالى: (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا. قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (الإسراء: ٩٥-٩٦).

وصرح الله عز وجل: (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم. فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (الأنبياء: ٨).

كل هذه الآيات تدل صراحة على أن الله تعالى لم يرسل لهداية الناس وإرشادهم أو لاختبارهم رسلا ملائكة. وإنما يبعث رسلا أناسا، وأن الملائكة إنما تنزل على أنبياء الله تعالى وأوليائه فقط ..أما غيرهم فقد يرونهم كشفا. وحيث إن الآية تصرح أن هذين الملكين كانا يتعايشان مع الناس ويعلمانهم.. فلا بد أن نعتبرهما رجلين صالحين، وقد أطلق عليهما اسم ملكين لصلاحهما وتقواهما، وكانا يفعلان كل ما يأمرهما به الله تعالى.

فالذين يظنون أن هاروت وماروت كانا ملكين يعلمان الناس السحر في بابل ويختبرانهم في إيمانهم.. غير مطّلعين على معارف القرآن. فما دام الملائكة لا يعيشون على الأرض فكيف تبعث إلى الناس؟

إنه من المستحيل تماما أن تأتي الملائكة بدلا من الناس لهداية الخلق. تصفحوا التاريخ تجدوا أن الرجال هم الذين بعثوا أنبياء.

وليس ثمة امرأة أو أي مخلوق آخر غير الإنسان بعث إلى الناس. فليس هناك إلا طريقان اثنان: إما أن نقول بأن هاروت وماروت صفتان أطلقتا على رجلين صالحين كأنهما ملكين.. كما سمي يوسف مَلكًا، أو إذا كان ملكين حقيقين فإنهما نزل على نبِيَّيْن و لم يبعثا للناس عامة.. لأن الملائكة لا تتنزل هكذا. وإنما تتنزل

على رجال مطمئنين كما جاء في القرآن (الإسراء: ٩٦). والمطمئنون هم الصلحاء والأطهار المقربون، المبرءون من كل نوع من المعاصي والرذائل، والحائزون على البركات الإلهية والأفضال السماوية. وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) (الفجر). فالمطمئنون هم أصحاب النفوس المطمئنة، وليس الذين يعيشون على الأرض في رفاهية، إنهم يمشون في هدوء لا يتشاجرون ولا يتخاصمون. والحقيقة أن هؤلاء المطمئنين هم الذين تتنزل عليهم الملائكة، ولم يحدث أنهم نزلوا على الكفار وبلغوهم رسالة الله تعالى.

هاروت – من هرت الثوب: مزقه (المنجد). هرت الشيء: شقه (المعجم الوسيط). فهاروت كثير التمزيق والشق. ماروت – من مرت أي كسر. فماروت كثير الكسر.[٣]

فتنة –الفتنة اختبار المرء ليتبين خيره من شره، وطيبه من خيره (المنجد).

التفسير: توفي سيدنا المهدي والمسيح الموعود عليه السلام في مايو ١٩٠٨م، وبعد وفاته بشهر تقريبا أوحى الله إليّ الآية القرآنية "اعملوا آل داود شكرا". ومع أن الله تعالى لم يستخدم في هذا الوحي اسم "سليمان".. إلا أنه وعدني بقوله "آل داود" بعض ما خص به سليمان – عليهما السلام، واعتقد أن من نعم الله تعالى- حسب هذا الوعد- أنه عز وجل قد فهمني معنى الآية التي طالما حار واضطرب العلماء في تفسيرها، كما أعتقد أن هذا الوحي كان يتضمن أيضًا نبأ أنني سوف أصبح خليفة للإمام المهدي، ويشير إلى الصعاب التي سوف تعترض طريقي. ولما كان الإنسان بفطرته يقلق من مواجهة الأخطار، ويضيق ذرعا باعتراضات المعترضين .. لذا نبهني

[٣] لم نعثر على هذا المعنى في القواميس المتوفرة لدينا، إلا أنه ورد هناك: مرت الشيء: ملسه. وملس الشيء: انتزعه واستأصله؛ ملس الرجال بلسانه: داهنه؛ ملس الإبل: ساقها بشدة؛ ملس الأرض: سوّاها (المنجد). فكان هاروت من يمهد بكسر شوكة العدو واستئصاله.

ربي-عز وجل- إلى أن الأخطار والاعتراضات ليست بدون جدوى.. فاستعد لمواجهتها دون قلق واضطراب.

وهذه الآية أيضا تتناول ذكر بعض ما واجه سليمان من صعوبات وأخطار. ورغم أن معناها واضح وصريح..إلا أن المفسرين القدامى قد عانوا كثيرا في تفسيرها. وقالوا في آخر الأمر إن الآية تشير إلى حادثين تم فيهما تعليم الناس السحر.

الحادث الأول وقع في زمن سليمان.. حيث اختلط الشياطين بالناس وعايشوهم وعلموهم السحر. والثاني حدث في بابل حيث أنزل الله ملكين –هاروت وماروت –كانا يعلمان الناس السحر قائلين: إنما نحن فتنة وامتحان لكم. كما كانا يقولان للذين يعلمانهم: أن تعلم السحر كفر، وسوف نعلمكم هذا الكفر إذا أردتم.

وقد نسج خيال هؤلاء قصصا غريبة جدا حول الحادثة شاعت بين العوام، وكنا نستمع إليها في الصغر. فحكوا أنه كان بحوزة سليمان خاتم "الخاتم السليماني".. يدبر بفضله كل الأمور؛ فسلبه الشيطان من سليمان، فحرمه عرشه واضطره أن يهيم على وجهه، واستولى على ملكه وقد أُلقي عليه شبهه. وبعد مدة مديدة عثر شخص على الخاتم وسلمه لسليمان، فاستعاد عرشه.

أما عن قصة هاروت وماروت فزعموا أنهما كانا ملَكَيْن فسقا عن أمر ربهما، وقالا إن الأيام قد صدّقت قول الملائكة عند خلق آدم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء).. وبطلت دعوى الله تعالى" إني أعلم ما لا تعلمون".. إذ استولى الشيطان على ذرية آدم في الأرض؛ ولو كنا نحن الملائكة فيها ما ظهر هذا الفساد. فأرسل الله تعالى هاروت وماروت إلى الأرض قائلا: حسنا، اذهبا أنتما ننظر كيف تعملان. فجاءا إلى الدنيا وتعايشا مع الناس، وكانا يُعلمان اسم الله الأعظم والسحر. فجعلا يعلمان الناس السحر، ويدعيان أمام الله تعالى أن الناس بأنفسهم يكفرون. وكانا ينبهان الناس وقت تعليم السحر أن تعلمه حرام يؤدي إلى الكفر، ويخيرانهم يتعلمون أو لا يتعلمون، ولكن الناس رغم ذلك كانوا يتعلمون.

كما تحكي القصة أنهما كانا يعلمانه الرجال فقط، مما كان يؤدي إلى التفريق بين الرجال ونسائهم. وفي أثناء هذا جاءت بغي اسمها (زهرة)لتتعلم الاسم الأعظم

فعشقاها. وفي يوم من الأيام سقتهما الخمر فزنيا بها. فخيرهما الله بين أمرين: إما أن يمكثا في الأرض معلقين من أقدامهما في البئر، وإما أن يعذبا في الآخرة.. ففضّلا عذاب الدنيا على الآخرة لعلمهما بشدة عذاب الآخرة، فعلقا من أقدامهما في بئر قديمة ببابل، ولا يزالان بها. أما (زهرة)التي تعلمت منهما الاسم الأعظم فصعدت وتحولت إلى نجم مشرق يعرفه القوم باسم (الزهرة)(تفسير محاسن التأويل للقاسمي). وقد بالغ أهل كشمير وقالوا: إن هاروت وماروت في كشمير، وكأنهما فرا من بابل إلى بلدهم!

وبعد سرد هذه القصة والأقوال الخرافية.. يقولون إن الملائكة أصابوا في اعتراضهم، حيث إن الله تعالى بعث آدم أولا ولكن نسله فسدوا، ثم أرسل هذين الملكين ولكنهما أيضًا تأثرا من الناس وفسدا. وهذا غير صحيح، لأن الله تعالى يقول في صراحة إن الملائكة كلهم مجبولون على الطاعة والصلاح وأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)(التحريم:٧)، أما الناس فمنهم الأبرار ومنهم الأشرار. إذا كان الناس قد فسدوا فالملائكة أيضًا فسدوا كما يزعم هؤلاء المفسرون.. وهذا لا يدفع الاعتراض وإنما يقويه ويزيد الطين بلة، لأن قصتهم تقول إن الملائكة قد فسدوا، مع أن الله تعالى صرح أنهم لن يفسدوا.. وقد عصوا الله عصيانا صريحا، فعلقوا في بئر عقابا لهم.. حتى حكي أن البعض قد رآهم معلقين في البئر ببابل!

وعندي أن قولهم هذا خطأ تماما. فالزعم بأن ملكين كانا يعلمان السحر، وأن سليمان أيضًا كان يمارس السحر ويعلمه الناس يعرض الملائكة والأنبياء للطعن، كما أن شهادة التاريخ تكذبه تكذيبا. فلا وجود إطلاقا لما يسمى سحرا بأن ينفخ الساحر ويوجد شيئا في لمح البصر. أما التنويم المغناطيسي فشيء آخر تماما.

الأمر الواقع أن هذه الآية تذكر بعض ما دبر اليهود المعاصرون للنبي من مكائد ومؤامرات ضده، وتبين أنهم في عدائهم له ﷺ اتبعوا الطرق التي سلكها أعداء سليمان للقضاء على ملكه. كما تنبه اليهود إلى أنهم لن يفلحوا أبدا في نواياهم الخبيثة.

وإذا افترضنا صحة ما ذكره المفسرون من قصص.. وقد توخيت الإيجاز الشديد في سردها.. لم يبق أي علاقة لهذه الآية بما قبلها. ولكن المعنى الذي علمني الله بفضله لا يدع أي خلل في ربط الآيات من ناحية، ولا يجعل الملائكة هدفا للاعتراض من ناحية أخرى، ثم إنه لا ينافي تاريخ سليمان من ناحية ثالثة، كما يشكل برهانا عظيما على صدق النبي ﷺ من ناحية رابعة.

والآن أبين لكم معنى الآية تفصيلا. ولكي لا يصعب فهم المعنى.. أتوخى في الشرح التعامل الفكري الطبعي الذي يوصل إلى هذه النتيجة.

يتبين من الآية أنها تتكلم أولا: عن حدوث فعل ثلاث مرات في مختلف العصور.

وثانيا: أن هذا الفعل الحادث ثلاث مرات تعلق بجمعية سرية، أو بمؤامرة خفية.

وثالثا: أنه حدث في المرات الثلاث التالية:

-في عصر سليمان: (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان).

-في بابل:(وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت).

-في عهد النبي ﷺ: (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم)، وقال في موضع آخر في هذا المعنى نفسه (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون)(البقرة:١٠٤).

ورابعا-أن هذا الحادث المتكرر ثلاث مرات صدر عن اليهود.

وإذا فهذه الأمور الأربعة سوف تحدد معنى الآية، وكل معنى لا يتوفر فيه هذه الشروط الأربعة كلها أو بعضها يكون مردودا.

وإذا فحصنا القصص التي ذكرها المفسرون وجدناها ينقصها واحد من هذه الشروط: إما لكونها لا تخص اليهود، أو لكونها لم تقع ثلاث مرات، أو لم تحدث في هذه العصور الثلاثة، أو لا تكون لها علاقة بالجمعيات السرية والمؤامرات الخفية.

وإذا أمعنا النظر في هذه الشروط أو الأصول الأربعة وجدنا أن أوضحها هو كون هذا الحادث مرتبطا بالجمعيات السرية والمؤامرات الخفية التي تفرق بين الرجال والنساء.. أي لا تكون المرأة عضوا فيها. فهذا الأصل يسهل ويضمن لنا المضي في

التحقيق في اتجاه سليم. هلموا الآن نر هل هناك أي جمعية تفرق بين الرجل والمرأة، ولها صلة بهذه العصور.

إذا ألقينا نظرة فاحصة على تاريخ العالم كله لم نجد فيه إلا جمعية واحدة تفرق بين الرجل والمرأة، وما زالت آثارها موجودة في عصر النبي ﷺ، بل لم تزل موجودة حتى قبل عشر أو عشرين سنة.. ألا وهي الجمعية الماسونية، وهي جمعية سرية، لا تضم في عضويتها النساء.

هذا، مع العلم بأنه لا علاقة للماسونية الحالية بهذه الأحداث، وإنما تتعلق هذه الأحداث بتلك الجمعية الماسونية السرية التي كان لها علاقة بهذه العصور الثلاثة، وشواهد التاريخ تؤيد ذلك. كما أن الجمعية الماسونية لم تكن موجودة وجودا متصلا إلى الآن.. وإنما تأسست بهذا الاسم عدة جمعيات في مختلف العصور.. عاش بعضها أربعمائة سنة، ثم جاءت أخرى وعاشت لخمسمائة سنة، وبعضها حتى القرن الخامس عشر الميلادي، ثم تأسست أخرى في القرن الثامن عشر وانمحت في نفس القرن، وتأسست من جديد في القرن التاسع عشر. لذلك لا نستطيع تخصيص إحدى هذه الجمعيات الماسونية، ولكن إذا وجدنا لإحداها علاقة باليهود وصلنا إلى الهدف، لأن الشروط الثلاثة الأخرى أيضًا تخص اليهود.

والآن تعالوا نتحقق..هل كان لإحدى هذه الجمعيات الماسونية علاقة باليهود؟ فليكن معلوما أن مؤلفي دائرة المعارف اليهودية قد حاولوا قطع أية صلة بين اليهود والماسونية، حيث قالوا إنه لا علاقة لهم بالماسونية (انظر تحت كلمة الماسونية)، وهذا يشكل في حد ذاته دليلا واضحا على أنهم كانوا على صلة بها، وإلا لم تكن بهم حاجة لذكر ذلك.

ثم إن المقال نفسه يؤيد رأينا، فقد قالوا فيه: إننا نسلم بوجود آثار يهودية في أصول الجمعيات الماسونية. وهذه تربط اليهود بالماسونية، لأن هذه الآثار تخص في أول الأمر أولئك المعماريين الذين بنوا معبد سليمان عليه السلام.. حتى إن هذه الجمعية

نفسها تعترف أن بدايتها كانت حينما بنى سليمان معبده الأول، بل يقول بعض أعضائها إن موسى عليه السلام هو أستاذهم الكبير.

كما ورد في دائرة المعارف اليهودية أن الروايات الماسونية تذكر صلتها بالنبي"حورام أبي " الذي بنى المعبد، والذي تذكره التوراة على النحو الآتي: (وأرسل الملك سليمان وأخذ حورام من صور..وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لعمل كل عمل في النحاس) (الأخبار الثاني ٢: ١٣و ١٤)

ويضيف صاحب الكتاب أن الروايات الماسونية تذكر أنه بعد أن تم بناء المعبد قتل ثلاثةُ بنائين حورام أبي. ويعتبر موته للآن سرا كبيرا من الطقوس الماسونية. كما أن البنائين الآخرين أيضًا قتلوا(الجمعيات السرية في العالم ج٥ ص١-١٠)

ثم يقدم الكاتب حلا لهذا اللغز قائلا: يبدو من الروايات الإبّيّة أن البنائين قتلوا بعد بناء المعبد خوفا من أن يحولوه إلى معبد للأوثان فيهتكوا حرمته. وتذكر هذه الروايات أنهم قتلوا البنائين الآخرين أيضًا، ولكن حورام أبي صعد إلى السماء، وهو جالس فيها الآن بجانب 'حنوك'. ويعقب المؤلف على ذلك ويقول: لا يوجد عندي أي أثر لذلك في كتب التاريخ الأخرى.

ويضيف أيضًا: ليس من المستبعد أن يكون الماسون بأنفسهم قد نقلوا من التوراة المصطلحات والآثار والأفكار والروايات اليهودية التي توجد في الماسونية بدون أي دخل لليهود في ذلك، بيد أن الكثير من الروايات قد أخذت من اليهود بلا شك، وتذكر في أحوال وعلامات أصدقائهم الماسون. وعلى سبيل المثال..فإن للعمودين Braze-Jachin أهمية كبرى في علامات الماسون (الجماعات السرية والحركات الهدامة ص١٠١-١١٠).

ثم إن من البراهين على صلة الماسونية باليهود أن أسماء الشهور والأعوام القمرية التي تستخدمها الجمعية الماسونية الأسكتلندية هي نفس الشهور والأعوام التي كان اليهود الأوائل يستخدمونها. ولكن صاحب دائرة المعارف اليهودية يعلق على ذلك

قائلا: من يدري.. لعل هذه الأسماء راجت فيهم عن طريق المسيحيين؟ ثم يذكر المؤلف قائمة لهذه الأسماء المتداولة في الماسونية التي يبلغ عددها ما بين ثلاثين وأربعين اسما.

هذا، وقد جاء حورام أيضًا في هذه المصطلحات.. وكل هذه المصطلحات والطقوس يهودية، وصاحب دائرة المعارف اليهودية معترف بذلك (ج٥ص٥٠٣).

وعلاوة على ذلك –فإن الروايات الماسونية تذكر أنه كان هناك بين الماسون وبين سليمان صراع، حيث جاء أنه كان في عهد سليمان بنّاء اسمه حورام، فعشقته بلقيس وعشقها، فاشتعل سليمان حسدا على حورام، وتآمر مع ثلاثة من مساعدي حورام الحاقدين عليه، فقتله وتزوج بلقيس قسرا. وأنه لا تزال الماسونية منذ ذلك الحين، وتوجد فيها أيضًا آثار تخص البنائين، بل أن كلمة الماسون نفسها Free Massons & Accepted Massonsتعني (البنائين الأحرار)(الجمعيات السرية في العالم Secret Societies of the World ج٢،ص١-١٠).

فيتضح من هذه الرواية أن الماسونية كانت على صلة وثيقة بأعداء سيدنا سليمان، حتى أن الناس أيضًا كانوا على علم لهذه العداوة بينه وبينهم.

وهناك رواية أخرى تؤكد وجود جمعية سرية في عهد سليمان، كانت تعمل ضده. وهذه الرواية كانت شهيرة في قدامى الماسون، وتقول إن سليمان كان قبل حادث بلقيس أيضًا يحسد ويحقد على حورام لِما أوتي من ذكاء عال ونفوذ كبير، فحاول سليمان قتله سرا، وألقاه في حوض به زيت مغلي، ولكن روح جده 'قابيل' أنقذته، إلا أنها أخبرته أن عدوه سوف ينتصر عليه آخر الأمر. وتم ذلك حيث أغرى سليمان بعض حساد حورام بالمال لقتل ثلاثة بنائين، كان حورام أحدهم. ويقولون إن حورام هذا كان قد اخترع رموزا وإشارات سرية ليتفاهم بها مع أصحابه، فكانوا باستخدامها يجتمعون على الفور(المرجع السابق).

ويضيف صاحب هذا الكتاب أنه قبل "الماسون المقبولين" كانت الجمعيات الماسونية كلها تستخدم نفس الرموز التي استخدمت في زمن حورام. وكانوا يُعلِّمون أعضاءها الجدد بعض الأسرار الخفية للقيام بالمهمات، ويذكرون لهم حادث حورام، وكانوا يحكمون للعضو الجديد شيئا من الحادث بالكلام وشيئا بالتمثيل.

ويذكر صاحب دائرة المعارف اليهودية أيضًا أن اسم حورام يتكرر في رموز الماسونية، وحاول أناس أن يعثروا على تلك الرموز، ولكنها كانت معلقة في عنقه، ولما قتله سليمان أتلفها.

وإذًا فقد تبين من ذلك كله أنه كان هناك في زمن سليمان جمعيات سرية تعاديه وتتآمر عليه، فقتل سليمانُ زعيمها. وكان بعض أتباع هذا الزعيم يقدسونه لدرجة أنهم ظنوا أنه لم يقتل وإنما رفع إلى السماء. وكان هؤلاء من اليهود حيث وجدت في هذه الجمعيات آثار وطقوس يهودية تنسب إلى حورام.

ثم نرجع إلى التوراة لنجد فيها أيضًا ذكرا لجمعيات معادية لسليمان. وبرغم أن التوراة لم تذكر حورام إلا أنها تؤكد عدواة اليهود لسليمان واتهامهم إياه بالكفر والشرك، وهذا ما ذكره القرآن ههنا.

فأولا_ جاء اتهامهم سليمان بالكفر والشرك في التوراة هكذا:

(وكانت له سبعمائة من النساء السيدات ثلاثمائة من السراري. فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه.. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين. وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الرب)(الملوك الأول ١١:٣ ،٤ ،٩، ١٠).

مما يبين أن اليهود كانوا يتهمونه بالكفر والشرك بالله، كما كانوا يقومون بنشر هذه التهم بين الناس. ويشير أيضًا قول الله في القرآن (على ملك سليمان)أن تكفيره كان شغلا شاغلا بين الناس.

وثانيا- يتضح مما سبق أن الذين كانوا تحته في الظاهر هم الذين كانوا يتآمرون عليه. وبحسب التوراة فإن سليمان صار مشركا بالله.. لذلك أقام الله ثلاثة أعداء له هم: (١)هدد الأدومي، (٢)ملك دمشق رزون بن أليداع، (٣) يربعام الذي أثاره أخِيّا الشيلوني النبي ضد سليمان.

فقد ورد: "وأقام الرب خصما لسليمان..هدد الأدومي"(الملوك الأول ١١:١٤).وكان هدد هذا من نسل الملوك الأدوميين، وهرب إلى مصر في عهد داود، ولكنه رجع ثانية في عهد سليمان ليتآمر عليه.

وورد أيضًا: "وأقام الله له خصما آخر..رزون بن أليداع الذي هرب من عند سيده هَدَدَ عَزَرَ ملك صوبة. فجمع إليه رجالا، فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم. فانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا في دمشق"(المرجع السابق: ٢٣ ،٢٤).

وورد: "ويربعام بن ناباط أفرايمي من صردة عبد لسليمان واسم أمه صروعة وهي أرملة. رفع يده على الملك"(المرجع السابق: ٢٦).

يتضح من هذا أنه صار لسليمان أعداء كثيرون من داخل ملكه يتآمرون عليه. تقول التوراة: (ولما سمع يربعام بن نباط وهو في مصر حيث هرب من وجه سليمان الملك رجع يربعام من مصر. فأرسلوا ودعوه. فأتى يربعام وكل إسرائيل وكلموا رحبعام قائلين. إن أباك قسّى نيرنا، فالآن خفف من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا، فنخدمك)(أخبار الأيام الثاني ١٠:٢-٤).

مما يدل على أنه ما أن مات سليمان إلا أرسل بنو إسرائيل إلى أكبر أعدائه يربعام في مصر. وقبل أن يجلس ابن سليمان رحبعام على العرش جعلوا يطالبونه بقبول بعض شروطهم إن أراد كسب طاعتهم.

وتبين التوراة كذلك أنهم كانوا يستخدمون بعض رموز سرية، حيث قيل: (وكان في ذلك الزمان لما خرج يربعام من أورشليم أنه لاقاه أخيّا الشيلوني النبي في الطريق هو لابس رداء جديدا وهما وحدهما في الحفل، فقبض أخيّا على الرداء الجديد الذي

عليه ومزقه اثنتي عشرة قطعة. وقال ليربعام: خذ لنفسك عشر قطع. لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل. هأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط. ويكون له سبط واحد من أجل عبدي داود ومن أجل أورشليم المدينة التي أخذتها من كل أسباط إسرائيل) (الملوك الأول ١١:٢٩-٣٢).

ويبدو أن اليهود قد دسوا اسم الله في هذه العبارة من عندهم. والحق أن يربعام كان رجلا جريئا، بل حائزا على منصب الحاجب أي رئيس الحراس. ويبدو أن أعداء سليمان قاموا بشراء هذا الرجل.

أما لغة الإشارات والتصوير فتشير إلى ميلهم إلى الماسونيين. فكان في تمزيق الرداء إلى اثنتي عشرة قطعة إشارة إلى اثنتي عشرة قبيلة لبني إسرائيل وكان في تقديم عشر قطع ليربعام تحريض للثورة ضد سليمان، فإن عشرة قبائل إسرائيلية سوف تسانده. وبالفعل حدثت الثورة بعد ذلك، ونصبته القبائل العشر ملكا لها. إنهم من ناحية اتهموا سليمان بالكفر، ومن ناحية أخرى بمجرد أن تولي يربعام زمام الحكم ارتكب الشرك بالله، وبنى معابد لمختلف الأصنام، فقد ورد. "..لأن يربعام وبنيه رفضوهم من أن يكهنوا للرب، وأقام لنفسه كهنة للمرتفعات وللتيوس وللعجول التي عمل)(أخبار الأيام الثاني ١١:١٤و١٥).

فاتضح مما سبق من العبارات والمراجع أن أعداءه كانوا ينصحون أصحابهم باستخدام الرموز لإخفاء نواياهم عن سليمان، كما كانوا يلجئون إلى إغراء الناس بالمال والمناصب والرشاوى للتآمر عليه.

وبالاختصار فإن قول الله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر..) كأنما يتحدث عن المؤامرات السرية التي قام بها اليهود ضد سليمان عليه السلام، كما يبين أن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ أيضًا كانوا يكدون له كيدا مثلهم، ولكنهم سوف يفشلون في مراميهم الخبيثة.

والحادث الثاني الذي يذكره القرآن هنا حدث ببابل، فهناك لجأ بنو إسرائيل إلى تشكيل جمعيات سرية، ولكن كان زعماؤها حينئذ اثنين من أنبياء الله تعالى، حاولا تحرير اليهود بأمر من الله تعالى، وذلك بكسر شوكة عدوهم وتشتيت شمله، كانا يستميلان الناس لتحقيق هدفهما قائلين: إنما نحن فتنة.. إذ سوف يختبركم الله تعالى ليميز الأبرار من الأشرار، فلا تكفروا ولا ترفضوا ما ندعوكم إليه. وكان يخفيان خطتهما عن النساء ولا يشركانهن في نشاطهما.. شأن الجمعيات السرية منذ القدم، حيث لا تقبل المرأة عضوا بها. كما كان هذان النبيان — اللذان سميا هنا هاروت وماروت —لا يضرون نشاطهما السري هذا إلا الذين أمرهما الله بالكيد لهم.

والآن بقي أن نرى ما حدث في ببابل.

ليكن معلوما أنه بعد سليمان ببضع سنين قام نبوخذنصر ملك بابل بغزو أورشليم وأسر عشر قبائل من اليهود وذهب بهم إلى بابل، وترك في فلسطين قبيلتين منهم فقط (الملوك الثاني ٢٥:١-١٣). وانتشرت هذه القبائل اليهودية العشر واستوطنوا ما بين كشمير وغيرها من الأماكن. وقد تم أسرهم وإجلاؤهم هذا بحسب نبأ للنبي إرمياء الذي أنذرهم قائلا: إن لم تعطوا يوم السبت حرمته تدمرون (إرمياء ١٧:٢٧).

ثم طال مُكثهم في منفاهم ببابل، ولم يجدوا سبيلا إلى النجاة.. حتى أنبأ الله على لسان أنبيائهم أنه تعالى سوف يعيدهم إلى وطنهم ومركزهم. وتحقق هذا بعد سبعين سنة عندما جلس على عرش ميديا وفارس ملك اسمه "كورش"، وشاء الله تعالى أن تنشب بينه وبين ملك بابل حرب لما رأى هذا وغيره من الملوك نجم كورش في صعود، ولكنه كان أدهى منهم، فأخذ يقضي عليهم واحدا واحد إلى أن شن الهجوم على بابل نفسها. وتمت بين كورش وبين النبيْن اليهوديْن "هاروت وماروت " اتفاقية سرية تقضي بأن يناصره اليهود مِن داخل المدينة نظير السماح لهم بالعودة إلى وطنهم؛ بل وعدهم كورش بدعم مالي لإعادة بناء المعبد. وبالفعل

احتل المدينة من داخلها بمساندة اليهود، ووفى لهم بوعده، فسمح لهم بالعودة إلى الوطن، وأمدهم بمال كثير وخشب لبناء المعبد، فعمرت أورشليم من جديد في عهد النبي عزرا (تأريخ المؤرخين للعالم ج٢ ص٢٦ Historians History of the World)

فهاروت وماروت إذًا نبيان إسرائيليان قاما بأمر الله بإرجاع شعبهما إلى الوطن، وذلك بمساندة كورش ملك ميديا وفارس. وقد أطلق القرآن على أحدهما اسم 'هاروت' أي كثير التمزيق، وعلى الآخر اسم 'ماروت' أي كثير الكسر.. لِما كانا يقومان به من كسر شوكة بابل وإضعاف قوتها وتمزيق وحدتها وتشتيت شملها.

وبالنظر في التوراة يمكن القول إنهما النبي حجي و النبي زكريا بن عِدّو.. فقد ورد أن النبيين حجي وزكريا هما اللذان سعيا لتحرير اليهود بمساندة كورش سرا (عزرا ٥). وإلى هذا أشار القرآن بقوله: (..وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر. فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله).

الآن ننظر إلى الأصل الثالث، ألا وهو: هل يوجد أي اثر لمثل هذه النشاطات من جانب اليهود في عهد النبي ﷺ؟

والجواب: نعم، تذكر كتب التاريخ أن اليهود تآمروا على النبي، وتزعمهم كعب بن الإشراف الذي طاف الجزيرة العربية، وأشعل نار العدواة، وأوغر صدور العرب ضد النبي ﷺ، وبلغت به الوقاحة أن هجا نساء المسلمين، وتناول نساء بيت النبوة أيضًا بهجوه الفاحش (السيرة النبوية لابن هشام، مقتل كعب بن الأشرف).ولما رأى اليهود أن دولة الإسلام في تقدم مستمر وازدهار متزايد رغم عواصف المعارضة هذه..تآمروا مع دول أخرى للقضاء عليه.

كان لليهود قبل بعث النبي ﷺ علاقات قوية بملك الفرس، وتذكر كتب التاريخ أن اليهود مالوا إلى ملك الفرس بسبب اضطهاد المسيحيين الرومان لهم. كانت في ذلك الزمن دولتان عظيمتان: الدولة الفارسية المجوسية والدولة الرومانية المسيحية؛ ولما كان الفرس يعادون الرومان، وكان اليهود أيضًا يعادونهم بسبب مسيحيتهم واضطهادهم الشديد لليهود في دولتهم..لذا مالوا إلى الفرس طمعا في مساندتهم لهم، وأنشئوا معهم علاقات قوية حتى صار لهم نفوذ في نفوس الفرس. وأيضًا فر بعض اليهود من اضطهاد الدولة المسيحية إلى بلاد فارس، وتمتعوا بالحرية الدينية تحت حكم الفرس. وهناك أعدوا كتابهم (التلمود)، ونبغ هناك أحبار كبار منهم نالوا إكراما وتعظيما خاصا لدى ملوك الفرس، وخاصة لما اشتدت وطأة التعذيب المسيحي على اليهود في عهد جستنتين (٥٢٧-٥٦٧ م)، لم يجدوا ملجأ لهم إلا في فارس، حتى تحول مركزهم الديني من يهوذا أو أورشليم إلى بيلونيا (هتشنسن- تاريخ الأمم ٥٥٠، ودائرة معارف التوراة).

وصار بهم في عهد النبي ﷺ أن ضيَّق قيصر الروم عليهم الخناق، وكان لا يدخر وسعا في القضاء عليهم، وكان لا يكتفي بتعذيبهم.. بل يكرههم على الارتداد عن دينهم، وينفيهم من البلاد. وإذا فقد كانت الدولة الفارسية هي الوحيدة التي يمكن أن يستعين بها اليهود لما كان يتمتع به دينهم ورهبانهم من احترام ونفوذ كبيرين في نفوس الفرس، حتى أن الملوك كانوا يقربونهم إليهم.

والآن، إذا ثبت وجود أي مؤامرة فارسية للقضاء على الإسلام فلا بد لنا من عزوها إلى اليهود.. لأن مشركي العرب لم يكونوا على علاقة طيبة مع الفرس، وإنما كان اليهود هم المقربون إليهم. هلم الآن نتحقق: أدبّر اليهود مع الفرس مؤامرة للقضاء على الإسلام أم لا؟

يخبرنا التاريخ أن الملك الفارسي خسرو الثاني كتب إلى واليه على اليمن قائلا: بلغني أن رجلا من العرب قد ادعى النبوة، فاقبض عليه وابعث به إلينا لنعاقبه. فأرسل والي اليمن سفيرين إلى النبي ﷺ.. أبلغاه الخبر، وحثّاه على الذهاب معهما

على ألا يرفض حتى لا يغضب الملك.. فيشن الغارة على العرب كلهم. فأمرهما النبي ﷺ بأن يعودوا إليه في الغد. فلما جاءا قال لهم: لقد أخبرني ربي أنه قد أهلك ربكم البارحة. فظنا لجهلهما أن النبي ﷺ يماطلهما. فنصحا له أن يصحبهما إلى الملك حتى لا يثور فيدمر العرب جميعا. وكرر النبي ﷺ قوله: ارجعا إلى بلدكما وبلغا صاحبكما بما أقول. فرجعا وأخبراه الخبر. فقال الوالي: لننتظر بضعة أيام، فإن تحقق ما قال فإنه نبي صادق، وإن كذب فويل للعرب من كسرى.

وبعد أيام وصلت اليمن سفينة فارسية، جاء عليها مكتوب إلى والي اليمن عليه خاتم الملك الجديد، ولما رآه الوالي شك في الأمر، وقال في نفسه: يبدو أن نبي العرب صادق. ولما فضّ الرسالة وجدها من " شيرويه SIROES " يقول فيها: كان أبي ملكا مستبدا فقتلناه بعد أن طفح الكيل من مظالمه، وقد خلفته في الملك، فخذ من الرعية عهد الطاعة لي. وكان قد أمر بإرسال نبي العرب ظلما.. ونحن نلغي هذا الأمر، وانتظر حتى يأتيك منا أمر جديد (تاريخ الطبري ج٣،أحداث السنة ٦هـ).

فتحقق ما أنبأ به النبي ﷺ. وقتل الابن أباه هو الآية الإلهية.. إذ لا يتجاسر أي ابن على رفع يده ضد أبيه.

الناس يتحيرون ويتساءلون: لماذا أصدر كسرى الأمر بالقبض على النبي ﷺ؟ ولكن هذا الحادث يدل على أن هناك من أغراه بالنبي ﷺ. والواضح أن النصارى لم يكونوا ليفعلوا ذلك..فالرومان النصارى والفرس على عداء فيما بينهم. ثم لم يكن العرب كذلك ليثيروه لأن الفرس كانوا يحتقرون العرب احتقارا شديدا..ويتبين هذا عندما قال الملك الفارسي للمسلمين حين ذهبوا لغزو فارس في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه: (ليأخذ كل واحد منكم دينارين وارجعوا إلى أرضكم.. أنتم أَكَلَة الضب فما لكم وللملك؟!(المرجع السابق، أحداث السنة ١٤ هـ).

فما دام العرب محتقرين في أعين الفرس المجوس لهذه الدرجة فكيف يعقل أن يتجاسروا على إثارة ملكهم ضد النبي.. وأن يستجيب هو أيضًا بهذه السهولة ويأمر بالقبض عليه؟

هذا بالإضافة أن العرب كانوا أشتاتا متفرقين تماما.. لا يجمعهم نظام مطلقا..فكيف يعقل أن يؤثر على ملك عظيم يحكم نصف العالم تقريبا.. قومٌ متخلفون منعزلون عن الدنيا ولا صلة لهم به، ولا حول ولا قوة لهم على ذلك الملك.

الواقع أن اليهود كانوا يتمتعون في دولة الفرس بمناصب عالية جعلت لهم نفوذا في الدولة..حتى أن زعماءهم كانوا يجلسون في الصدارة عند ملوك الفرس. واليهود هم الذين كانوا ألد أعداء الإسلام ونبيه، فلما استيأسوا من كل جهة، جعلوا يثيرون ملك الفرس بمختلف الطرق ضد النبي ﷺ حتى بعث الملك بالمكتوب المذكور آنفا.

وقد قال بعض المؤرخين: ربما كان كتاب النبي ﷺ الذي أرسله إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام هو الذي أثاره، فأمر واليه على اليمن أن اقبض على هذا الرجل وابعث به إلينا لأنه تجاسر علينا(المرجع السابق، أحداث السنة ٦ هـ).
ولكن هذا لا يصح تاريخيا.. ذلك لأن أمر كسرى هذا كان قبل أن يدعوه النبي ﷺ إلى الإسلام بكتابه الذي أرسله إليه. يقول الزرقاني: (لأن بعثه للملوك إنما كان بعد العودة منها _أي من الحديبية _في غرة المحرم سنة سبع).(شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، ج٢، أمر الحديبية). وغرة المحرم هذا توافق ١٢ إبريل عام ٦٢٨م حسب التقويم الذي أخرجه صاحب تاريخ المؤرخين Historians History في المجلد٨ صفحة١١٨. أما كسرى خسرو الثاني فقد قبض عليه في ٢٥ فبراير ٦٢٨ واغتيل في آخر فبراير ٦٢٨م (المرجع السابق، ص٩٥). وذلك يعني أن الرسول ﷺ دعا الملوك إلى الإسلام بعد اغتيال خسرو الثاني بشهر واثني عشر يوما.. مما يبطل الزعم بأن كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى خسرو الثاني هو الذي دفعه إلى إصدار الأمر بإلقاء القبض على النبي ﷺ، لأن سفير النبي ﷺ توجه بكتابه

من المدينة إلى المدائن عاصمة فارس آنئذ بعد اغتيال كسرى (حياة محمد لموير صفحة ٣٨٤). ولو افترضنا أن كتابه ﷺ هو السبب وراء ثورته.. للزم أن يكون النبي قد كتب إليه قبل ذلك بثلاثة أو أربعة أشهر .. أي في ديسمبر سنة ٦٢٧م ..ولكنه كتب إليه في غرة المحرم سنة ٧هـ الموافق ١٢ أبريل ٦٢٨م. وذلك بحسب التقويم الذي أخرجه صاحب تأريخ المؤرخين، أما بحسب تقديرنا فهو ٤مارس ٦٢٨، وفي كلتي الصورتين لا يمكن أن يكون كتاب النبي ﷺ وراء ثورة كسرى، وإنما هي التقارير الكاذبة التي أرسلها اليهود إليه لإثارته. وحيث إنه قبض عليه في ٢٥ /٢ /٦٢٨ وأعدم في آخر نفس الشهر.. فلن يكون خطاب النبي ﷺ موجها إلى كسرى خسرو الثاني وإنما إلى ابنه كسرى شيرويه الذي خلفه من بعده. والذين أرجعوا ثورة كسرى إلى كتاب النبي..هم أنفسهم قد اعترفوا آخر الأمر أنه لم يصدر هذا الأمر بمشورة عربية لأنه لم يكن له أي نفوذ على العرب، وإنما قام بما قام بإثارة خارجية.. أصحابها هم اليهود الذين أرادوا القضاء على دولة المدينة بمساندة ملك الفرس، كما قضوا من قبل على دولة بابل بنفس الطريقة.

وقد اعترف بالمؤامرة اليهودية هذه سير وليم موير فقال: إن رجال كسرى توجهوا بأوامره قبل أن يصله كتاب النبي ﷺ. وأن اليهود كانوا يثيرون كسرى على النبي. أما العرب فلم يكن لهم شأن عند كسرى، وأما النصارى فكانوا أعداء له (المرجع السابق).

ومما يؤيد موقفي هو تصرف اليهود مع النبي ﷺ، فكل المحاولات لاغتياله ﷺ كانت من تدبير اليهود. فمثلا من الثابت تاريخيا أن امرأة يهودية حاولت مرة قتله بإطعامه طعاما مسموما (البخاري، الجهاد والسير؛ السيرة النبوية لابن هشام، أمر خيبر). ثم دعوه إلى بيت لهم وحاولوا اغتياله بإلقاء حجر كبير عليه (المرجع السابق، أمر إجلاء بني النضير).كما انحط هؤلاء لدرجة أنهم لم يكونوا يرون أي عار في القيام بنشاطات سرية.. في حين أن الأحرار الشجعان يرون ذلك عارا ويفضلون الثأر وجها لوجه. وحينما فشل اليهود في تنفيذ ما أرادوا..أغروا كسرى بقتل النبي ﷺ.

تبين مما سبق من البحث ما يلي:

أولا-أن الجمعيات السرية كانت بدايتها من اليهود.

وثانيا-أن هؤلاء كانوا من أعداء سليمان.

ثالثا- أنهم دبروا نشاطات سرية ثلاث مرات: مرة ضد سليمان، وثانية ضد ملك بابل، وثالثة ضد النبي ﷺ.

وما دمنا قد رأينا أن حلقات هذه الأحداث قد اتصلت بعضها ببعض.. فتحقق أن هذه الآية تتحدث عن أعداء سليمان، ثم عمّا حدث بين الملك الفارسي كورش وبين ملك بابل، ثم كل ما دبره اليهود من محاولات لقتل محمد ﷺ.

وعلى ضوء هذه الأحداث..يكون معنى الآية كما يلي:

إن هؤلاء اليهود يتبعون ما كان الشياطين – أي رؤساء الشر والفساد –يأتونه في زمن حكم سليمان عليه السلام.. حيث كانوا يتهمونه بالكفر والشرك والإلحاد، وكانوا يشيعون عنه الإشاعات بأن النساء قد مَلَكْن قلبه ودفعنه إلى عبادة آلهة غير الله أو أن يأمر بما ينافي الدين. والحق أن سليمان كان مرسلا من ربه؛ ولم يكفر ولم يشرك قط، وإنما أولئك الشياطين..رؤوس الفتنة والشر هم الذين كفروا.

بقي الآن مسألة لم أتناولها من قبل، وهو أن الله قد أعلن: أولا –أن أعداء سليمان كانوا يتهمونه بالكفر؛ وثانيا-أن سليمان لم يكفر ولكن الشياطين الثائرين على ملكه هم الذين كفروا.

وهنا قد يقول أحد: من الممكن أن يكون معارضوه قد اتهموه بالكفر عن أمانة منهم وصدق نية، أو عن سوء فهم، أو أنهم قد اتهموه بالكفر بغيا وشرا..ولكنهم كانوا أهل صلاح. فرد الله على هذا الفرض بقوله: إن أعداءه لم يتهموه لا عن أمانة وصدق نية، ولا عن سوء فهم، ولم يتهموه وهم أهل بر وصلاح.. وإنما فعلوا ما فعلوه نتيجة لسوء أعمالهم وفساد دينهم.

ولقد سبق أن ذُكر اتهامهم سليمان بالكفر في سفر الملوك الأول صح١١:٣-١٠، ثم ذُكر في نفس المرجع (٢٩ ،٣٣)أن (يربعام) الذي بغى فيما بعد حارب ابن سليمان وضم إليه عشرة قبائل، وكان أكبر من اتهموا سليمان، حيث قام هو وصاحبه (أخياه)-الذي زعموه نبيا -باتهامه أنه عبد آلهة غير الله وأشرك وكفر. فرد الله سبحانه عليهم وقال إنهم كاذبون..لأنهم هم الذين كفروا وكانوا يريدون نشر الشرك وضم الناس إليهم.

والآن تعالوا نتحقق أأشركوا فعلا أم لا ؟

ورد في التوراة أنهم أشركوا بالله، حيث أقام الله أبيا ضد يربعام، فخرج بجنوده لمبارزة يربعام وقال: (..والآن أنتم تقولون إنكم تثبتون أمام مملكة الرب بيد بني داود، أنتم جمهور كثير ومعكم عجول ذهب قد عملها يربعام لكم آلهة ...وأما نحن فالرب هو إلهنا و لم نتركه (أخبار الأيام الثاني ١٣:٨-١٠).

يظهر من هذا أنهم عبدوا العجل. وهروب هؤلاء إلى مصر ورجوعهم منها أيضًا دليل على ذلك..لأن مرض عبادة العجل تسرب إليهم من مصر من قبل أيضًا.. ويبدو أن المصريين كانوا يغرون الناس بالمال ليعبدوا آلهة المصريين وهكذا كانوا يوطدون تعظيم آلهتهم.

فيبين الله تعالى أن هؤلاء اتهموا سليمان بالشرك وأثاروا عليه شعبه الموحِّد، مع أن المتهمين أنفسهم كانوا مشركين حيث صنعوا أصناما وعبدوها وروّجوا لها. وقوله تعالى (يعلمون الناس السحر) يبين أنهم كانوا يخدعون الناس بكلام معسول ذي وجهين.. مما يعني أنهم كانوا مشركين في قراره أنفسهم، ولكنهم تظاهروا بالتوحيد لاكتساب تأييد الشعب، وقالوا نحن موحدون، ولكن سليمان مشرك، وذلك كقول المنافقين (إنما نحن مصلحون) (البقرة: ١٢). فينخدع ضعاف الإيمان بكلامهم قائلين: هؤلاء يدعون إلى شيء جميل وعلينا أن نقف إلى جانبهم.

ويمكن فهم عبارة (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) بطريقتين:

أولا –أنه عطف على (ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان)؛ والمعنى أن ما حدث في زمن سليمان حدث مرة أخرى فيما بعد أيضًا. وكما تأسست جمعية سرية ضد سليمان كذلك تشكلت جمعية مشابهة لها ضد ملك بابل. أي أن الشبه بين الحادثتين كان ظاهريا فقط..لأن أصحاب الجمعية المضادة لسليمان كانوا كافرين، في حين أن أعداء ملك بابل كانوا مؤمنين.

وينشأ هنا تساؤل: إن الجماعة الإسلامية الأحمدية كانت ولا تزال تتمسك بعدم الثورة على الحكومة، وهذه الآية تبين أن الثورة أمر سليم مستحب!

ويبدو هذا السؤال في ظاهره ذا وزن، ويخيل للمرء أن تعليم جماعتنا استثنائي، ولكن لو أمعنا النظر لرأينا أنه ليس في ذلك جديد؛ بل إن الإسلام يمنح الإنسان حق المقاومة للحكومة التي تضطهده، وتمنعه من الهجرة إلى بلد آخر.. ويسمح له أن يثور عليها ثورة سرية أو علنية. يصرح الإسلام بأنه إذا غضب عليكم الحاكم واضطهدكم فانتظروا واصبروا حتى يأتي فرج الله تعالى. وإذا اشتد الاضطهاد بحيث لم تعودوا تستطيعون الصبر فاهجروا تلك الأرض إلى أخرى. فإذا منعكم من الهجرة و لم ينفك عن الاضطهاد فلكم أن تقاوموه وأنتم في بلده (النساء: ٩٨).

والواقع أن اليهود كانوا أسرى في بابل بعيدا عن وطنهم، وكان ملك بابل قد حظر عليهم العودة إلى وطنهم (الملوك الثاني ٢٣:١٥-١٦)، ويعتبر هذا نوعا من التدخل في دينهم، لذلك أجاز الله لهم أن يثوروا على الحاكم سرا أو علنا.. مما يعني أن المؤمنين يصبرون على ما يستطيعون عليه صبرا، أما إذا رأوا أنهم لا يستطيعون الصبر صرّحوا بأننا لا نستطيع صبرا..فخذوا أموالنا وأرضنا وديارنا وخلّوا سبيلنا. ولكن إذا منعتهم الحكومة من ذلك أيضًا فلهم الحق في مقاومتها..لأنهم ضحوا بأموالهم وديارهم و لم يخلوا بالأمن، ولكن الحاكم هو الذي يخل بالأمن إذ يمنعهم من الهجرة، ويدعوهم لمقاومته. وهكذا كان حال اليهود عندئذ؛ فما كان الملوك يتركونهم ليهاجروا إلى وطنهم، ولا كانوا يسمحون لأخوتهم بتعمير مدينتهم أورشليم من جديد..إلى أن هيأ الله الظروف المواتية لذلك.. حيث قيل (وفي السنة

الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم إرميا نبّه الرب روح كورش ملك فارس، فأطلق نداء في كل مملكته وبالكتابة أيضًا قائلا: هكذا قال كورش ملك فارس: جميع ممالك الأرض دفعها إلي الرب إله السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتا في أورشليم التي في يهوذا. مَن منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا، فيبني بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله الذي في أورشليم (عزرا ١: ١-٣).

هذا هو كورش نفسه الذي ناصره اليهود، فسمح لهم بالعودة إلى أورشليم، وهو نفسه الذي جاء ذكره في سورة الكهف (٨٤-٩٩) باسم (ذي القرنين)، فأنشأ صداقة معهم، وهزم ملك بابل بمساندتهم بأمر الله تعالى. كانت الحكومة البابلية مستمرة من قرون، وكانت مملكة كورش ضئيلة أمامها، وأرادت بعض الحكومات بما فيها بابل القضاء على حكمه، ولكنهم عرف نيتهم فعقد اتفاقية سرية مع اليهود، وهزم البابليين.

وقد بيّن الله بذكر هذه الأحداث أن اليهود المعارضين للنبي ﷺ هم أيضًا يكيدون له كما الشياطين –رؤساء الشر –يكيدون لسليمان، ويتبعون نفس الطريق الذي اختاره هاروت وماروت بأمر من الله تعالى، ولكنهم لا يفكرون أن الذين تآمروا على سليمان كانوا أهل شر وسوء، في حين أن هاروت وماروت قاما بتلك النشاطات بأمر الله لإنقاذ بني إسرائيل من ربقة ملك بابل.. وكانا يقولان للناس: هلموا انضموا إلينا ولا ترفضوا ولا ترتدوا كافرين. تعالوا نحارب من داخل المدينة سرا.. عندما يهاجمها كورش بجيش من الخارج، ولا تخبروا بذلك نساءكم لأن فيهن ضعفا وجبنا ولا يستطعن كتمان السر. فهناك بون شاسع بين ما يقومون به وبين ما قام به هاروت وماروت من نشاط خفي.. فهل يمكن أن يدَّعوا بأن ما يفعلون بمحمد ﷺ يفعلونه بأمر الله ولإرضائه تعالى؟ هل يعد كافرا من يرفض الانضمام إليهم؟ وما داموا لا يمكنهم قول ذلك فإنهم يشبهون الثائرين على ملك سليمان، وليسوا كثائرين على ملك بابل.

ويبيّن قوله تعالى: (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) أن الثوار المشبَّهين بالملائكة لم يكونوا يغرون أحدا إلا بوحي من الله تعالى.. فهل يدعي اليهود أن الله يوحي إليهم أن يعادوا محمدا ﷺ ؟ وبرغم أنهم لم يتلقوا أي وحي كهذا.. فهم عندما يقال لهم:لا تكيدوا هذه المكائد.. يقولون: لقد سمح الله لنا بذلك.. وقد قمنا بمثل هذه النشاطات في بابل أيضًا. فيرد الله عليهم أن الأحوال والأسباب قد تغيرت الآن تماما.. لأنكم الآن تحاربون رسولي الذي تلقى الوحي مني.. ولستم إلا مثل أعداء سليمان. كما كان أعداؤه يتهمونه بالكفر فأنتم أيضًا تتهمون محمدا بالكفر؛ وكما أشاعوا ضده الإشاعات فأنتم أيضًا تشيعون الأقاويل ضد هذا النبي، وصرتم من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

أمّا ما قام به رسولان من رسلي في بابل فقد قاما به بأمر مني، ضد قوم كتبنا عليهم الدمار والهلاك، وقمتم عندئذ بما قمتم به لمساندة رسلي وليس لمعارضتهم. وأما الآن فتظنون أنكم سوف تقضون على دعوة محمد ﷺ كما قضى رجلان صالحان على ملك بابل. لن تفلحوا في ذلك أبدا، لأنكم تشبهون أعداء سليمان.. ووقتها قمتم بنشاط سري ترتب عليها نفيكم من البلاد، والآن أيضًا سوف تلقون نفس المصير.

ثانيا- تكون جملة (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) جملة مستأنفة.. والمعنى أنه شتان بين ما فعل أعداء سليمان ضده، وبين ما قام به هاروت وماروت ببابل.. فلا يحق لهم أن يقولوا نحن نفعل كما فعل هاروت وماروت ببابل. والمعنى الثاني هو أنهم يشبهون في نشاطهم السري أعداء سليمان وأعداء ملك بابل. وأما شبههم بأعداء سليمان فحقيقي؛ وأما شبههم بأعداء ملك بابل فهو شبه ظاهري فقط وليس حقيقيا.

وقوله (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) يشير إلى حقيقة أن اليهود يحسبون أنهم كما تحرروا من ربقة ملك بابل بمساندة ملك الفرس.. فسوف يتحررون الآن أيضًا من حكم رسول الله محمد ﷺ بالتآمر عليه من دولة خارجية؛ وهذا لن يحدث أبدا.

ذلك لأن نجاح هاروت وماروت يكمن في أنهما فعلا ما فعلا بأمر الله تعالى، ولكن هؤلاء يخالفون الله عن أمره، فلن ينفعهم. فاتهامهم النبي ﷺ بالكفر كاتهام أعداء سليمان إياه وتآمُرُهم عليه مع كسرى، ومقاومتهم له بمساندة خارجية، كما حدث في غزوة خيبر، كل ذلك لن يغنى عنهم شيئا، وإنما مصيرهم الهلاك ولن يضروا محمدا شيئا.

وكأن الله تعالى ببيان هذين الحادثين يوعدهم، ويدعوهم للمقارنة بين ما فعلوا في زمن سليمان وما فعلوا في بابل حتى يعرفوا مصيرهم، حيث أدت مؤامرتهم ضد سليمان إلى إضعاف قوة إسرائيل وانحطاطهم وهوانهم فأسرهم ملك بابل وأجلاهم عن وطنهم، حتى أن أكبر أعداء سليمان يربعام أيضًا لم يجد بدا من الهروب إلى مصر (الملوك الأول ١١:٤٠). ولكنهم لما قاموا بالنشاط السري بأمر من الله تعالى وتحت قيادة نبيين قضوا على عدوهم وعادوا إلى وطنهم من جديد.

فكأن في ذلك نبأً أنهم لتآمرهم مع الفرس سوف يُطْرَدون من المدينة ثم من خيبر أيضًا حتى تطهُر أرض العرب من نجسهم.. وعندئذ يتبين جليا أنهم كاذبون. وبالفعل أدّت مؤامرتهم هذه إلى هلاك كسرى، ثم إلى نفيهم من الجزيرة العربية، تماما كما حدث بالمتآمرين على سليمان عليه السلام.

وقوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق).. يوضح أن رؤساءهم يدركون جيدا أن من يعادون أنبياء الله تعالى ويأتون بهذه المنكرات لا يكون لهم أي نصيب من نِعم الآخرة؛ ولكنهم مع ذلك لا يرتدعون عن القيام بمثل هذه النشاطات، فذات مرة جاء حبران يهوديان إلى النبي ﷺ، ولما رجعا سأل أحدهما الآخر: ما رأيك فيه؟ قال: إني أراه صادقا. فقال الأول: وأنا كذلك. قال: فهل نؤمن به؟ قال: لن أصدقه ما حييت. فقال: وهذا بالضبط ما نويته. (السيرة النبوية لابن هشام، عداوة اليهود –شهادة من صفية)

ويظهر من هذا أن قلوب اليهود كانت تشهد بصدق النبي ﷺ مما رأوا من أدلة صدقه، ومما تحقق من الأنباء التوراتية، ولكنهم كانوا يكفرون به بأفواههم.

ويشير قوله تعالى: (ولبئس ما شروا به أنفسهم) إلى أنهم يحسبون بفعلهم هذا أنهم قد اشتروا أنفسهم.. أي أنقذوها من الدمار، ولكن الحقيقة عكس ذلك.. حيث إنهم بسبب ذلك سوف يهلكون، فيعاقبهم نبينا في الدنيا، ونعذبهم في الآخرة.

وقوله (لو كانوا يعلمون) يعني من يدريهم أن محمدا سوف ينال من القوة والسلطان ما لا قبل لهم به.. وينفيهم من الجزيرة العربية؟

هذا، وتبين الآية أيضًا أن الإسلام لا يرضى بالنشاطات الخفية والجمعيات السرية، وما حدث ببابل كان استثناء تمَّ بأمر من الله تعالى.

*ويجدر بنا أن نوضح هنا إشكالين: الأول –أن الله تعالى استخدم صيغة الماضي فقال: "واتبعوا "في حين أن الأوفق استخدام صيغة المضارع "يتبعون ".

الواقع أن الأمر الذي أشير إليه هنا هو النشاط اليهودي السري الذي أثاروا به كسرى خسرو الثاني ضد النبي ﷺ. ولكن لّما خلفه ابنه شيرويه توقف هذا النشاط، لذلك استخدمت صيغة الماضي، لأنه لو استخدمت صيغة المضارع "يتبعون " لظن أن الملك الجديد أيضًا لم يزل سائرا سيرة أبيه، وهذا خلاف الواقع.

والإشكال الثاني أن الله تعالى استخدم صيغة المضارع "تتلو "مع أن الأنسب هو استخدام صيغة الماضي "تلا ". وقد أجاب المفسرون على ذلك بأن هناك محذوفا قبل الفعل "تتلو"..وتقدير العبارة: كانت تتلو (البحر المحيط). وأسلوب الحذف من السمات الخاصة باللغة العربية دون اللغات الأخرى. فبينما تلجأ اللغات إلى أدوات خاصة للتأكيد والتنبيه.. فإن العربية تؤدي معنى التوكيد بالحذف فقط. فحذفت (كانت) لتأكيد أن أعداء سليمان قاموا بالنشاط ضده.. وأن أعداء محمد ﷺ أيضًا يسلكون طريقهم تماما، ولا يألون جهدا للقضاء على الإسلام.

وعلاوة على ذلك فهناك سبب آخر لاختيار هذا الأسلوب.. وهو أن من أساليب العرب أنهم يستخدمون صيغة المضارع للتعبير عن عادة قديمة، ومثال ذلك قول الله تعالى: (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل)(البقرة: ١٩٢). وهنا أيضًا جيء بصيغة المضارع للإشارة إلى النشاطات اليهودية المستمرة التي لم يزالوا يقومون بها منذ زمن سليمان ورسخت فيهم حتى كأنها صارت طبعا فيهم. *[٤]

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمنوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٤)

التفسير: تبين الآية أنهم لو آمنوا بمحمد ﷺ ، وتمسكوا بالتقوى لازدهروا روحيا وماديا، ولكنهم عادوه ﷺ تعصبا، فقالوا: لماذا لم ينـــزل الوحي على أحدنا ونزل على واحد من بني إسماعيل. ولكنهم لو علموا ما قدر الله لهم من عذاب شديد، وكتب للمسلمين من فضل عميم، ولو علموا ما سيواجههم من صعاب وظروف قاسية وما سيناله محمد ﷺ من سطوة وشوكة..لأسرعوا إلى الإيمان به والانقياد له. ولكنهم لا يعلمون ما أخفى لهم المستقبل..وإنما يعيشون طلابا للملذات الدنيوية، ولذلك يعارضونه ويعادونه.

انظروا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه..فإنه لما أسلم قال الناس: كان رئيسا من رؤساء مكة، ولكنه أصبح الآن ذليلا. بيد أن ما حدث هو أن من كانوا يحترمونه ويثنون عليه خيرا قبل إسلامه لم يتجاوزوا مائتين أو ثلاثمائة..ولكن الله تعالى أنعم عليه ببركة الإسلام بالخلافة والملك، فنال شرفا دائما وعزا أبديا في العالم كله. فلما لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى وانتخب أبو بكر الصديق خليفة للمسلمين بلغ الخبر أهل مكة..وكان أبو قحافة والد الصديق في المجلس فسأل: من أبو بكر هذا؟ قال: ابن أبي قحافة. فسأل في حيرة: ومن أبو قحافة؟ قال: أنت. فلما سمع ذلك قال من

[٤] الجزء المحصور بين النجمتين جاء في الأصل الأردو تحت تفسير الآية القادمة (١٠٤)، ونقلناه هنا لربط الموضوع.

جديد: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله..ثم أضاف: اليوم تبين لي صدق محمد ﷺ جليا (تاريخ الخلفاء للسيوطي، أبو بكر الصديق).

فأين رئيس قبيلة واحدة من خليفة للمسلمين كافة وملك للعرب جميعا..اصطدم به الفرس والرومان فهزمهم.

فالله تعالى يقول: إن التضحيات التي سوف يبذلونها في سبيل الإسلام تكون ضئيلة جدا بالنسبة لثمارها التي يجنونها. ليتهم يدركون هذه الحقيقة!

الترتيب والربط:

لقد سبق أن بينت في تفسير الآيات السابقة أن الله ذكر أولا تلك النشاطات التي ما زال اليهود يقومون بها ضد أنبيائهم السابقين، و لم ينفك يسرد عليهم معاصيهم إلى أن نبههم أنهم الآن يعادون النبي ﷺ كما عادوا أنبياءهم من قبل. وفي هذه الآيات يواصل الله ذكر بعض الحلقات الأخرى من سلسلة معاصيهم، وبين أن معارضتهم للنبي ﷺ ليس جديدا منهم، لأن معارضة الأنبياء ظلت شغلهم الشاغل منذ القدم. كما بيّن أن عداوتهم هذه تشجعهم على عداوة الله جل علاه. فقد سبق أن نبّه في الآية (٩٨) أن العداوة لهذا القرآن ليست إلا عداوة لمن أنزله. وفي الآية (٩٩)حذرهم من أن عداوة الله تعالى تعني عداوة كل الأسباب الروحانية والمادية لرقي الإنسان. فلا تظنوا الكفر بالقرآن أمرًا هينا، كلا، بل الكفر به يعتبر حربا على خالق الأسباب الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وبين في الآية رقم (١٠٠)أنهم يكفرون بالقرآن بلا مبرر. لأن هناك براهين ساطعة على صدقه.

ثم ذكر في الآيتين (١٠١، ١٠٢)أن اليهود كانوا عاهدوا أنبياءهم أنهم سوف يصدقون النبي الموعود لهم، ولكنهم مع ذلك لا يؤمنون به.

وفي الآية (١٠٣)صرح أنهم لا يكفرون بالنبي ﷺ فحسب، وإنما يخططون لقتله بأنواع الحيل..ومنها أنهم يكاتبون سرا الملوك خارج جزيرة العرب، ظانين أنهم

سوف يفوزون في القضاء على هذه الدعوة، ولكن هذا خطأ منهم.. لأنهم لن يفلحوا أبدا في هذه النوايا الخبيثة. وهذا هو نفس الموضوع الذي سبق ذكره في قوله تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم) (البقرة: ٨٨).

ثم بيّن أن معارضة الأنبياء عادة راسخة فيهم منذ القدم، وضرب لذلك مثلا يتعلق بثلاثة عصور: عصر ازدهار حينما كانوا على قمة الازدهار..وذلك في عهد داود وسليمان؛ وعصر وسط: أي في عهد النبيين حجي وزكريا؛ وعصر انحطاط..وكأنهم لم يتخلوا عن عادة المعارضة في أي عصر من العصور.

وفي الآية (١٠٤) بين أن الإيمان الصادق والتمسك بالتقوى، والخوف من سخط الله عمل ثوابه عظيم وخيره كبير.

يَا أَيُّهَا الذين آمنوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٥)

شرح الكلمات:

راعنا- راع: فعل أمر من راعى، و"نا"ضمير الجمع للمتكلم. وراعاه مراعاة: لاحَظَه محسنا (الأقرب).حيث إن راعى من باب المفاعلة الذي يقتدي مشاركة الفريقين في العمل على السواء..لذا فأن راعنا تعني عاملنا بإحسان والتفت إلينا برفق نعاملْك بإحسان ونلتفت إليك برفق.

انظرنا –أصغ إلينا؛ تأنَّ علينا وانتظرنا (اللسان). وكأنه أيضًا بمعنى (راعنا) ولكن ليس فيه شرط المشاركة.

التفسير: كان اليهود يمكرون بالمسلمين مكرَيْن: مكر خارجي ومكر داخلي. وتتحدث هذه الآية عن مكرهم داخل المجتمع الإسلامي. فكما كانوا يغرون القبائل

والدول الأجنبية بالقضاء على الإسلام من الخارج..كانوا يلجئون لأنواع الحيل والمكر لتنفير المسلمين من الإسلام وتقليل حبهم وإجلالهم للرسول ﷺ.

فكانوا إذا رأوا أحدًا قد أصيب بضرر أسرعوا يتظاهرون بالعطف عليه. وكانوا يستخدمون في مجلس النبي ﷺ كلمات ذات وجهين.. حسن وسيئ (البخاري، كتاب الاستئذان)، بقصد أن يستخدمها المسلمون أيضًا في حديثهم مع النبي ﷺ.. فيزول من قلوبهم الحب والتقدير له، ويحل محله قلة الأدب ونقص الاحترام شيئا فشيئا. وعلى سبيل المثال: كانوا يسألونه سؤالا لا طائل منه استهزاء وسخرية، لكي تخف من قلوب المؤمنين هيبته ويضعف إخلاصهم له، أو كانوا يسألونه سؤالا عن العبرية استخفافا به.. مع أنه ليس في ذلك ما يشين المرء في الحقيقة. وكان النبي ﷺ إذا لم يعرف شيئا يصرح بأنه لا يعرف. روي أن النبي ﷺ ذات مرة رأى بعض أصحابه يقومون بتلقيح النخل، فسألهم عن سبب ذلك. فقالوا: هكذا نفعل يا رسول الله. قال: لعلكم إذا لم تفعلوا كان أكثر ثمرا . فتركوا التلقيح ظنا منهم أن النبي ﷺ لم يستحب ذلك. ولكن حينما لم تثمر النخيل جيدا شكوا إلى النبي قلة الثمر فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم. إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر (مسلم، الفضائل).

فكان الرسول ﷺ إذا لم يعلم بالشيء اعترف أنه لا يعلمه، ولكن اليهود كانوا يحاولون بهذه الطريقة إحراجه أمام أصحابه. ولكن الله تعالى كان يحميه من شرورهم بالوحي.

ومن شرور اليهود هذه أنهم كانوا يستخدمون في الحديث مع النبي ﷺ كلمات تحمل في طيّها تحقيرا واستهزاء، وإذا نهاهم أحد عن استخدامها قال قائلهم: ما فهمت قصدي، لأن نيتي لم تكن كما تظن. ورد في الحديث أنهم كانوا يسلمون عليه بقولهم: السام عليكم، بدلا من السلام عليكم. فكان السامع يظن أنهم سلموا عليهم، ولكنهم في الحقيقة دعوا عليه..لأن السام يعني الهلاك والدمار. ومرة فطنت إلى ذلك السيدة عائشة – رضي الله عنها –فردت على اليهودي: عليكم السام

واللعنة! ولكن النبي ﷺ قال لها: مهلا يا عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقالت: يا نبي الله، أولم تسمع ما يقولون؟ قال: أو لم تسمعي أرد ذلك عليهم فأقول: عليكم. (البخاري، الدعوات).وهذا يدل على عادة بغض اليهود وعداوتهم واستخفافهم بالنبي.

وهنا ضرب الله مثلا لمكر اليهود داخل المجتمع الإسلامي. ونصح المسلمين قائلا: أيها المؤمنون، لا تقولوا للنبي ﷺ: راعنا، ولكن قولوا: انظرنا. وقد ذكر القرآن سبب هذا الأمر الإلهي في مكان آخر، حيث صرح بأن اليهود كانوا عندما يحضرون إلى النبي ﷺ يسترعون انتباهه وعطفه إليهم قائلين: راعنا. وهذه الكلمة تعني: التفت إلينا بإحسان وعاملنا بلطف. ويبين القرآن أنهم لم يكونوا ينطقون بهذه الكلمة نطاقا عاديا، وإنما كانوا يلوون ألسنتهم بحيث يظن السامع أنهم يقصدون المعنى العادي، ولكنهم في الحقيقية يقصدون سب النبي ﷺ وتحقيره. فقد قال الله تعالى (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون: سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم) (النساء: ٤٧).

أي أن بعض اليهود يقومون بتحريف كلام الله تعالى، ويقولون سمعنا وعصينا؛ واسمع قولنا لا أسمعك الله كلامه. ويقولون: راعنا، أي عاملنا بلطف. ولكنهم ينطقون بهذه الكلمة وهم يلوون ألسنتهم ويطعنون في الدين. ولو أنهم تركوا عادة الفساد والشر هذه، وقالوا بدل ذلك: سمعنا وأطعنا، وانظرنا.. أي سمعنا قولك فالتفِتْ إلينا بلطف وإحسان لكان خيرًا لهم وأدعي إلى تحسين حالتهم.

يقول المفسرون إن النبي ﷺ رعى الغنم في صغره، ولذلك أشرار اليهود يقولون له "راعنا "، وكانوا يلوون ألسنتهم في نطق الكلمة بحيث تصبح " راعينا" ويقصدون أنك كنت راعيا لنا..فكيف صرت الآن نبيا؟ (البحر المحيط). ولكن العلامة الراغب الأصفهاني يقول: "كان ذلك قولا يقولونه للنبي ﷺ على سبيل التهكم، يقصدون

به رميه ﷺ بالرعونة ويوهمون أنهم يقولون راعنا أي احفظنا، من قولهم: رعن الرجل يرعن رعنا فهو رعن وأرعن (المفردات: تحت كلمة رعن).

وهذا يعني أن "راعنا " يمكن أن تكون من رعن، أي رجل أناني متكبر مغرور؛ فهم كانوا ينسبونه إلى الرعونة والكبر والغرور باستخدام كلمة يوهمون بها الآخرين أنهم يبجلونهم ويحترمونهم، ولكنهم في الحقيقة كانوا يفرحون بأنهم قد سفهوا المسلمين.

ولكنني أرى هناك سببا آخر لنهي الله المسلمين عن قول " راعنا "وهو أن "راع " فعل أمر من باب المفاعلة الذي يقتدي الاشتراك في العمل من الطرفين..كقولنا: باهَلَه وقاتَلَه؛ ويعني: عاملنا بإحسان ورفق حتى نعاملك نحن أيضًا كذلك، وإلا فلا. أما كلمة "انظر"فأنها تعني فقط: التفت إلينا بعناية ورفق. ففي قول "راعنا "من سوء الأدب والوقاحة ما لا يليق بعظمة النبي ﷺ ومكانته ، وليس المراد فقط تحاشي التشبه باليهود، لأن الإنسان إذا كان حسن النية فلا معنى لتشبهه باليهود، وإنما نهى الله المسلمون عنه كيلا يصابوا شيئا فشيئا بمرض سوء الأدب وقلة الاحترام مع النبي ﷺ.

وهذا يعني أنه لا بد من أخذ الحيطة والحذر في صغار الأمور أيضًا. والواقع أنه لم يُصب المسلمون ما أصابهم من انحطاط وفساد ودمار إلا لأنهم أساءوا استخدام كلمات لها حرمتها وقداستها. فقد دُمرت حكوماتهم لأنهم استخدموا كلمة "الملك "بمعنى سفيه. فإذا سمي الملك سفيها..فكيف يحترمه الناس؟ ومتى فقد الملك احترامه ضاعت هيبة الحكم أيضًا.

كما انعدم احترام العلماء من نفوس المسلمين حتى أخذوا يطلقون كلمات التوقير مثل "حضرة " -المختصة بالصلحاء والأولياء- على الأشرار والأوباش..حتى إنهم أساءوا استخدام لفظ الجلالة: فجعلوا يقولون عما لا يملك شيئا أنه "ليس معه إلا الله ".. يريدون أنه صار صفر اليدين، ولا يعنون بقولهم هذا ما أراده النبي ﷺ أو سيدنا أبو بكر الصديق حين سأله الرسول مرة وقد تصدق بكل ما يملك: ما أبقيت

لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله (الترمذي، أبواب المناقب).حقّا شتان بين قوله –رضي الله عنه –وبين ما يقول هؤلاء؛ لأنهم يقصدون أنه عاد لا يملك أي شيء. وكان نتيجة انتهاكهم لحرمة لفظ الجلالة أنهم فقدوا الإيمان بالله تعالى وصاروا ملحدين.

فإياكم واستخدام كلمات ذات حرمة وقداسة فيما لا تليق به.. وإلا فقدتم الاحترام والأدب نحوها، وجلبتم على أنفسكم الهلاك والدمار. كما يجب أن تحملوا غاية التقدير والاحترام لكلمات مثل: آية معجزة، كرامة، نبي، رسول، شهيد.. وغيرها، وإلا فقدتم احترام الشخصيات التي تختص بها هذه الأسماء، ومن ثم تنتشر فيكم الإباحية واللادينية. لقد كان الإمام المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام) يقول دائما: الطريقة كلها أدب (ملفوظات ج٣ ص ٤٥٥).. أي أن الروحانية أساسها الأدب. فإذا لم يراع الإنسان الأدب واستخدم كلمات ذات وجهين جلب عليه الهلاك أحيانا.

كان (إنشاءَ الله خان) شاعرا مجيدا، وكان يحاول دائما أن يسبق غيره من الشعراء في مدح الملك. وذات يوم مدح أحد الشعراء الملك فوصفه أنه نجيب، فأسرع (إنشاءَ الله) قائلا: بل إنه أنجبُ –يريد أنه أنجب الناس؛ ولكن (أنجب) تعني أيضًا ابن الأَمة– ومن المصادفات الغريبة أن الملك كان ابن أمة، فساد السكوت المجلس، لأن الحاضرين فكروا في هذا المعنى. وكانت النتيجة أن غضب الملك غضبا شديدا وأمر بحبس الشاعر..وقد جن ومات في السجن (تاريخ الأدب الأردو، ص ٢٤٧). لقد نصح الله –جل وعلا – المؤمنين ألا يقولوا: راعنا، بل يقولوا: انظرنا: ويتجنبوا كل ما يتسبب عنه سوء أدب ويمس كرامته ﷺ.

وقوله "ليّا" يعني أيضا الإخفاء والكتمان مما يدل على أن اليهود عندما كانوا يقولون "راعنا "كانوا يخفون ما لا يبدون للآخرين. كانوا يعنون: أنت أحمق مغرور–والعياذ بالله –ويخدعون المسلمين ويفرحون بخداعهم هذا، ويريدون أن يوقعوا المسلمين أيضًا في قول يحطون به من شأنه ﷺ.

وكلمة "انظرنا"تعني أيضًا: التفت إلينا برفق؛ انتظرنا أعطنا فرصة للكلام. فهي كلمة أدب، ومن الضروري للمؤمن أن يستعمل مثل هذه الكلمات إبداء للاحترام والتقدير الذي يكنه في قلبه للنبي ﷺ.

و(اسمعوا): قد أمرناكم فاقبلوا ما نقول. ويعني أيضًا: اصغوا جيدا إلى حديث النبي، فلا تحتاجوا للسؤال مرة أخرى ولا تضطروا إلى استخدام مثل هذه الكلمات الركيكة، وإن لم تفعلوا كما نقول فاعلموا أن صغار الأمور هذه تصبح كبائر، وسوف تفقدون حبكم للرسول ﷺ..لأن للظاهر تأثيرا كبيرا على الباطن.

إلا أن الأدب والاحترام الظاهري لا يعني أن يفعل الإنسان ما يجعل منه عبدا لغيره كلمس الركبة أو القدمين.. لأن في ذلك إذلالا للمؤمن أي إذلال، ولا يجوز بأي حال. إنه بمقدور الإنسان أن يحترم غيره بدون إذلال نفسه، وينبغي ألا يختار الإنسان ما فيه مذلة لنفسه..لأن الإسلام لا يأمر بذلك.

(وللكافرين عذاب أليم)والمراد من الكافرين هنا شرار اليهود المفسدون الذين يمارسون هذه الشرور والمنكرات لأهانه النبي ﷺ وبث النفاق في نفوس المؤمنون، وتقليل حبهم وتقديرهم للنبي ﷺ. يقول الله تعالى: إذا لم يرتدعوا عن هذه الشرور فسوف يلقون عذابا أليما.

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٦)

التفسير: يقول الله عز وجل إن أهل الكتاب والمشركين يريدون ألا ينـــزل عليكم أيها المسلمون أي فضل ولا نعمة من الله، ويحاولون أن يقللوا من احترام النبي ﷺ في نفوسكم، ويوقعوا بينكم النفاق والشقاق والفساد، وأن تفقدوا الوحدة التي تزيدكم قوة.. فاحذروهم جيدا. واعلموا أن عدوكم يريد أن يسخر منكم

ويستهزئ بكم..ولكنه في قرارة نفسه يعلم جيدا أن أعماله المنكرة هذه تكشف عن خبثه وخسته هو، ولا تضر بمحمد رسول الله شيئا.

(والله يختص برحمته من يشاء).. أيها اليهود إن أعمالكم السيئة هذه لن تغني عنكم شيئا لأن الله يختص برحمته من يشاء، وقد اختص الآن محمدا برحمته، ومهما حاولتم سبّه وإهانته فالنصر حليفه دائما وأبدا..لأن غيرة الله قد ثارت لنصرته.

(والله ذو الفضل العظيم)..يوجه أنظارهم إلى أن رحمة الله واسعة لا تُحد، وتعُم الجميع، فإن تبتم وآمنتم لوجدتم أنتم أيضًا نصيبكم منها.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٧)

شرح الكلمات:

ننسخ – نسخ الشيء: أزاله؛ أبطله؛ مسحه (الأقرب)

ننسها –أنسى الرجل الشيء: حمله على نسيانه (الأقرب). فمعنى ننسها أي ننسيك إياها ونمحو أثرها من الذاكرة.

آية – الآية: الرسالة.

التفسير: إن هذه الآية من الأهمية والحيوية بمكان، وعندي أنه لو أن الإمام المهدي والمسيح الموعود –عليه السلام –قد اكتفى فقط بإزالة ما علق بأذهان المسلمين من مفاهيم خاطئة عن هذه الآية لكان هذا وحده دليلا قاطعا على صدقه..ذلك لأن ما شاع ما بين المسلمين من معان خاطئة حولها كان يشكل عقبة كبيرة في طريق الإيمان بأن الإسلام دين حقّ وسبيل للسكينة القلبية والطمأنينة الحقيقية، لأن المسلمين في ذلك العصر كانوا يفهمون من هذه الآية ويستدلون بها على وجود النسخ في القرآن.. بمعنى أن الله قد نسخ بعض الآيات القرآنية أي ألغى حكمها،

وأنه سبحانه قد أنسى بعضها أصلا. والنسخ عندهم أنواع؛ الأول –أن هناك آيات نسخت لفظا وبقيت حكما. ويقدمون مثلا لذلك: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما نكالا من الله، والله عزيز حكيم) (روح المعاني):أي إذا زنى رجل عجوز وامرأة عجوز فارجموهما. يزعمون أن هذه الآية المنحولة باقية حكما ومنسوخة لفظا، ولا بد من تطبيق هذا الحكم.. وإن كانت كلماته قد رفعت من القرآن ولا تتلى!

ويقدمون مثلا آخر لذلك في زعمهم وهو: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا. ولا يملأ جوفه إلا التراب) (تفسير فتح البيان).

والنوع الثاني: أن هناك آيات نسخت حكما وبقيت لفظا. ومثال ذلك عندهم قول الله تبارك وتعالى (لا إكراه في الدين) (البقرة: ٢٥٧)..فيزعمون أن آية السيف قد نسخت حكم هذه الآية، ولا مانع من نشر الإسلام بالقوة والعنف.

كما يقدمون مثلا آخر لذلك وهو أن قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يديه نجواكم صدقة. ذلك خير لكم وأطهر) (المجادلة: ١٣).. قد نسخ حكمه بقوله تعالى: (ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإن لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله. الله خبير بما تعملون) (المجادلة: ١٤). والنوع الثالث: ما نسخ لفظا وحكما. ومثال ذلك عندهم: الأمر بالاتجاه نحو القبلة الأولى بيت المقدس في الصلاة أول الأمر (التفسير الكبير للرازي). فكان المسلمون في البداية يتجهون نحو القدس، ولكن هذا لا يجوز الآن..فليس في القرآن الكريم أي أثر للآية التي أمر الله فيها بذلك، ولا هم يتجهون نحو القدس في الصلاة. ويرون أن كلمة (ننسها) تعني أن ينسى الناس تلك الآيات، ويضربون لذلك مثالا أن اثنين من الصحابة تعلما سورة من الرسول ﷺ..فأرادا أن يذكراها ويراجعاها، ولكنهما لم يقدرا على حفظ لفظ منها. فلما جاءا النبي ﷺ وذكرا له ما حدث، قال ﷺ إنهما مما نسخ ونسي (القرطبي وفتح البيان).

وقرأ البعض (ننساها) بدل (ننسها)، بمعنى أننا نبقيها في القرآن ولا نغيرها. وقرأ البعض الآخر (نُنْسها) ولكن بمعنى نُنْسِها، أي نذهب بها ونمحو أثرها من الأذهان (المرجع السابق).

ولكن لو تدبر الإنسان قليلا لوجد أن التسليم بوجود النسخ في القرآن يؤدي إلى الشكوك في القرآن نفسه. فلو زعم أحد أن الله نسخ حكم الآية الفلانية ومحا أثرها من القرآن أيضًا..فربما لا يترتب على هذا شك في القرآن، كما كان من المعقول أن لا يذكر في القرآن تلك الآيات التي أريد تبديلها بحكم دائم؛ ولكن أي جدوى في حفظ الآيات المنسوخة حكما في المصحف إذا لم يرد استبدالها بحكم دائم آخر؟

لا شك أن الأحكام المؤقتة تنسخ بأحكام أخرى، كما نسخت صحف إبراهيم، وكما نسخت صحف موسى بالقرآن الكريم..فلا غرابة في نسخ بعض الأحكام الدينية المؤقتة بالبعض الأخرى، ولكن ما لا نقبله هو أن يعزى إلى القرآن الكريم — وهو الشريعة الدائمة الأبدية — أن بعض آياته قد كتبت فيه ثم نسخت منه. وإذا كان الأمر قاصرا على الحذف فقط لم يكن بالغ الخطورة، ولكن أن تبقى بعض الآيات المنسوخة حكما موجودة فيه لفظا..ثم لا يأتي عليه بدليل من الوحي الإلهي وإنما من قياسهم الفارغ.. فهذا أمر خطير أشد الخطورة، يعرض القرآن للشك والريبة، ذلك أن الناس متفاوتون في الذكاء، فبعضهم يفهم شيئا ولا يفهم شيئا آخر. وإذا تركنا الأمر للعقل الإنساني يحكم كما يشاء في القرآن ليرى آية سارية الحكم، وآية أخرى منسوخة الحكم.. لأدى بنا ذلك إلى التسليم بنسخ القرآن كله؛ لأن فيه آيات تفهمها بعض العقول بينما لا تفهمها عقول أخرى. ولذلك نرى الاختلاف عندهم في عدد الآيات المنسوخة.. إذ يبدأ هذا العدد من خمس آيات ويصل إلى ألف ومائة آية.. وكأن الذي لم يتمكن من فهم خمس آيات زعم أن المنسوخ خمس آيات، ومن لم يفهم مائة قال إن المنسوخ مائة، ومن لم يقدر على فهم ألف ظن المنسوخ ألفا.. وهلم جرا.

ولكن سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود جاء وأعلن أن القرآن من أوله إلى آخره.. من (باء) البسملة إلى (سين) (الناس) قابل للعمل، ولن ينفك هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولا أزال أتذكر جيدا قوله: إذا سلم أحد بأنه لا تزال في القرآن آيات منسوخة..فلماذا يكلف نفسه عناء التدبر فيه والعمل به؟ سيقول في نفسه: لماذا أضيع جهدي ووقتي في ذلك؟ من يدري أن الآية التي أُعمل فكري فيها يتبين لي فيما بعد أنها كانت منسوخة؟ ولكن الذي يؤمن أن هذا الكلام بتمامه وكماله منـــزه عن النسخ، وأن كل لفظ منه جدير بالعمل به..لا بد أن يتدبر القرآن، وهكذا يزيده القرآن علما ومعرفة.

لقد نبغ من خلق الله تعالى أناس كثيرون في العلم والمعرفة، ولكن من المستحيل أن يدعي أحد أنه قد أحاط بكل ما في القرآن من علوم ومعارف، لقد فتح الله علي – جل شأنه –بكثير من معارف القرآن..ولكني لا أستطيع أيضًا الادعاء بهذه الدعوى. والحق أن استيعاب أحد لجميع معارف القرآن لا يعني إلا قيام القيامة..ذلك أن القرآن ساري الحكم إلى ذلك اليوم، ولا ينـــزل بعده أي كتاب آخر، فعندما يتوقف ينبوع المعارف القرآنية المتجددة عن الجريان قامت القيامة. لذلك فلا آخر لمعارفه، وإنما لن يزال هذا الينبوع يتدفق بماء المعارف المتجددة للدين.

كان الأجدر بالمفسرين –على الأقل-إن كانوا لا يقدرون على فهم القرآن ألا يعزوا إليه ما لا يقبله العقل السليم. إنني عندما أتصفح وأقرأ ما ورد في كتب التفسير في شأن النسخ لا أجد آيه واحدة منسوخة. ولكن الأدهى والأمر من هذا أيضًا أن التسليم بوجود النسخ يبطل جدوى القرآن. لذلك أرى أن معنى النسخ الذي أراده المفسرون في هذه الآية معنى خاطئ تماما لا يقبله القرآن الكريم.. لأن الله قال في موضع آخر: (سنقرئك فلا تنسى)(سورة الأعلى)..أي أننا نقرئك القرآن بحيث لا تنساه. فإذا كان الله تعالى قد قال (ننسها) في موضع فإنه قال (فلا تنسى) في موضع ثان. وعلى ضوء تفسير هؤلاء لا بد من التسليم بنسخ إحدى

هاتين الآيتين. وإذا سلمنا بنسخ (سنقرئك فلا تنسى) فهذا يعني أن القرآن لا بد أن ينسى دائما ولا تذكره أبدا. وهذا ما لا يقبله أحد. ومن عجيب قدرة الله أنه لم يفكر أحد بنسخ قوله (فلا تنسى)، مع أنه كان على أصحاب النسخ أن يقولوا بنسخه أولا وقبل كل شيء. ثم يعلن في موضع آخر (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (الحجر: ١٠)..فقد ألزم الله نفسه بحفظ القرآن الكريم على مر العصور. وما دام الله بنفسه قد تكفل بحفظ القرآن فمن المحال نسيان أو نسخ آية من آياته.

الواقع أنه لم ينسخ من القرآن شيء، بل كل كلمة من كلماته جديرة بالعمل. إنه شرع دائم باق إلى يوم القيامة. لقد رأيتني مرة في الرؤيا أقول لأحد الناس: ليس كل لفظ فقط.. بل كل حركة وسكون في القرآن لا يخلو من معنى، وأن القرآن بتغير طفيف يغير معانيه، وأنه مليء بالحكم؛ فلا نجد أبدا له مثيلا في فحواه من الحكم والحقائق.

ولكن ليس من الضروري أن يطلع كل شخص على كل تلك الحكم والمعارف. نعم، يفتح الله من معارفه الجديدة في كل زمان، ومع ذلك لا تزال فيه معارف مكنونة لتنكشف على أجيال قادمة، وتمضي هذه العملية إلى أن تقوم القيامة.

وليس لدى القائلين بالنسخ في القرآن أي برهان في السنة النبوية بحيث يقال إن النبي ﷺ قال بنفسه: إن آية كذا قد نسخت، أو روى عنه أناس حضروا مجلسه فقال لهم: لقد أخبرني الله البارحة أن آية كذا قد نُسخت، وإنما دليلهم على النسخ أن مفهوم آية كذا يتنافى مع مفهوم آية كيت..ويبدو أن إحداهما ناسخة للأخرى. وكأن كل آية لم يتمكنوا من فهمها صارت منسوخة في رأيهم. وليس في هذا دليل إلا على عدم العلم فقط.

ولكن العجب كل العجب أنهم من ناحية يقولون إن حديث الآحاد لا ينسخ القرآن، وهذا صحيح تماما..فنحن أيضًا نقول إنه لا يمكن أن ينسخ واحد ولا

مليون حديث آحاد شيئا من القرآن الكريم.. ولكنهم من ناحية أخرى يقولون بنسخ آيات القرآن بناء على ظنونهم وقياساتهم. إنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم إنهم لا يقدمون أي مثال لآية نسخت حكما ولفظا، وإنما يذكرون حادث تحويل القبلة ويقولون إن الله تعالى كان قد أمر بالتوجه نحو القبلة الأولى..ولا يذكرون على أي كلمات لهذا الأمر المنسوخ لفظا وحكما. إذًا فلا اعتبار لدعواهم هذه.

وهم يزعمون أيضًا أن هناك آيات نسيها الصحابة، مع أن نسيانها في حد ذاته يشكل معجزة عظيمة، وكان لا بد أن تكون لهذا الحادث ضجة كبرى بين الصحابة كلهم..لأن عدد الذين كان النبي ﷺ يعلمهم ويحفظهم القرآن يبلغ المئات. فالثابت تاريخيا أنه في موقعة واحدة استشهد سبعون قارئا (البخاري، كتاب المغازي)..ومن هذا نستطيع تقدير العدد الهائل من الحفاظ المسلمين. هؤلاء المئات من الحفاظ هم غير أولئك الخمسة الذين كان النبي ﷺ يعلمهم ويحفظهم ما ينـــزل عليه من الوحي فور النـــزول (البخاري، كتاب العلم)..فهؤلاء الخمسة حفاظ خصوصيون. ثم كان لهم مئات التلاميذ الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب. فلو كانت بعض الآيات قد أنسيت لحدثت ضجة كبرى بين المسلمين، ولا بد من وجود عشرات الرواة لهذا الحادث، ولزم أن يروي كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي –رضي الله عنهم –أننا كنا نحفظ سورة كذا ولكننا أنسيناها فجأة. كما لا بد أن يأتي الآخرون إلى أبي بكر مثلا ويذكروا له ما حدث.. فيقول لهم: وأنا أيضًا قد نسيتها؛ ويأتوا عمر فيقول لهم ما قال أبو بكر..ثم يأتوا عثمان وعليا..ويذهب الجميع إلى النبي ﷺ ويذكروا له الحديث العجيب.. فيقول: نعم قد رفعتها الملائكة وأصبحت أنا أيضًا لا أتذكر منها شيئا.

رجلان فقط، لم يُذكر أبواهما نسيا سورة! والأغرب من ذلك أن كليهما باتا معا، واستيقظا للصلاة معا، ونسيا السورة معا، وفي الصباح أخبرا النبي بالخبر معا. ثم امتدت سلسلة النسيان حتى أن الرواة لم يضبطوا اسمي هذين الرجلين!!(فتح البيان والقرطبي)

الحق أنه لا يمكن أن يصدق أسطورة النسيان هذه إلا غبي من الأغبياء..ولا يمكن أن يصدقها أبدا رجل سليم العقل.

وأما فيما يتعلق بالآيات التي يزعمون أنها منسوخة لفظا وباقية حكما..كالآية المزعومة: الشيخ والشيخة إذا زنيا الخ..فنسأل: مادام حكمها قائما.. فما الحكمة في نسخ ألفاظها؟ أيضًا مما لا يقبله العقل والمنطق السليم. ثم إن كلمات الآيات المنسوخة في زعمهم أيضًا عجيبة. فمثلا قولهم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا..الخ). فالشيخ يعني: العالم الكبير أو سيد القوم؛ الرجل المتزوج..من قولهم: شيخ المرأة أي زوجها؛ الرجل العجوز المسن (الأقرب).

وفي ضوء هذه المعاني يكون معنى عبارة: (الشيخ والشيخة الخ):

١-إذا زنى عالم كبير أو رجل ذو شرف وسؤدد فارجموه، أما إذا ارتكب الفاحشة رجل من العامة فلا ترجموه.

أو ٢-إذا زنى الزوج بزوجته فارجموهما –فالشيخ والشيخة بمعنى الزوج والزوجة..وكأن الزوج يرتكب الزنا مع زوجته!.

أو ٣-إذا زنى رجل عجوز بامرأة عجوز –مع أنهم لا يقدران على الجماع أصلا – فارجموهما. وكل هذه الصور الثلاث من المحال، ولا يستطيع أحد قبول هذه العبارة على أنها آية قرآنية.

وما يدعو للعجب أكثر أنهم يزعمون نسخ آية أخرى تقول بكون الإنسان حريصا للمال، مع أن هذا خبر وليس بحكم، ومن المتفق عليه أن الخبر لا ينسخ حيث ورد: "أما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ"(تفسير ابن كثير).

فنسخ الحكم أمر مفهوم، ولكن لا يعني نسخ الخبر إلا أن الله أخطأ في بيانه – وحاشا لله. فكل هذه الأقوال في حد ذاتها مدعاة للضحك والسخرية، ولا يقبلها إنسان عاقل.

وعلاوة على ذلك فأي داع لذكر النسخ في القرآن هنا؟ إن الله تعالى يتناول هنا ذكر كتب اليهود، ويبين أنهم يقولون لا نصدق إلا بما أنزل علينا من الكتاب. فإذا لم يكن بد من التسليم بأن الآية تتحدث عن النسخ فمعنى ذلك أنها تتحدث عن النسخ في الصحف السابقة أي التوراة..وليس في القرآن كما يقول المفسرون، لأن ذلك لا يمت بصلة إلى الموضوع المذكور سالفا. وكأن المفسرين يقولون إنه لما قال اليهود: نحن ورثة أفضال إلهية خاصة، فلا نصدق إلا ما ينـــزل على أنبيائنا؛ رد الله عليهم: حسنا، آمنوا بالقرآن فهو كلامي، وإنه أيضًا يُنْسَخ ويُنسى!!

الحق أن قول الله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)لا يذكر إطلاقا نسخ أي آية من القرآن، لأن السياق أيضًا لا يُسوِّغ هذا المعنى، ولا يجوز لنا قبول ما لا يقبله السياق أيضًا. إن ما يتبين من السياق هو أن اليهود لا يودّون أن ينـــزل على المسلمين أي فضل من الله تعالى، ولكن الله يمن على من يشاء، فمَنَّ على المسلمين بأكبر أفضاله..وهو الوحي الإلهي، وأعطاهم القرآن. ولما كان من الممكن أن يتساءل متسائل: ما الحاجة إلى كتاب جديد مع وجود شرائع سماوية سابقة.. رد الله على هذا التساؤل وقال: كان في هذه الشرائع أحكام جديرة بالنسخ فنسخت. وكانت هناك أمور نسيها الناس بمرور الزمن وانمحى أثرها من الكتب السماوية شيئا فشيئا، فمست الحاجة لإعادتها إلى ذاكرة الناس. وهكذا نسخنا جزءا من هذه الكتب واستبدلناه بأفضل منه في هذا الكتاب، وأوردنا ما نسيه الناس كما هو في الكتاب مرة أخرى.

ولا يحق لأهل الكتاب أن يعترضوا على ذلك..لأن كتبهم نفسها تخبرهم بمجيء شريعة جديدة، فقد قيل (ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم. (أرمياء ٣١:٣١ و٣٢) وقيل: (لأنه يقول لهم دائما: هو ذا أيام تأتي يقول الرب حين أكمل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا. لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم يوم

أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر. لأنهم لم يثبتوا في عهدي وأنا أهملتهم. يقول الرب) (الرسالة إلى العبرانيين ٨:٨و٩).

فهذا هو المعنى المتلائم مع السياق، والمتناسب مع مضمون القرآن. وأما ما ذكرناه من رأي المفسرين فلا صحة ولا وزن فيه مطلقا.. فلا القرآن الكريم يصدقه، ولا السياق يسانده، ولا المنطق يقبله، وليس هناك في حديث النبي ﷺ ما يؤيده. وإنما الحق أن القرآن كله جدير أن يعمل به؛ فقد عمل به النبي ﷺ إلى حين وفاته، وكان يأمر بالعمل بالقرآن كله، كما أن القرآن نفسه يشهد بصراحة على كونه محفوظا، حيث قال الله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(الحجر: ١٠)

فمع كل هذه الشواهد لا يمكن أن يتصور المرء وجود النسخ في القرآن. وليس في القرآن الذي بين أيدينا أية آية منسوخة، كما لا يوجد فيه إطلاقا أي اختلاف حتى نلجأ إلى نسخه بالقياس. إنه في وضعه الحالي كامل لا عيب فيه. ولئن اجتمع أعداء الإسلام كلهم ليثبتوا وجود أي اختلاف فيه ما استطاعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ها نحن نتحدى بفضل الله تعالى ونعلن أن أهل العلم جميعا، فردا أو جماعة، لن يقدروا على إثبات النسخ في القرآن، ولو حاولوا لَدَحضْنا موقفهم من القرآن نفسه.

أما قوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير).. فيعني أننا نقوم بكل ذلك لإحداث انقلاب عظيم، وإيجاد سماء جديدة وأرض جديدة.

الحق أن الكفار لم يكونوا حاقدين على رسول الله ﷺ لأنه يعارضهم في آرائهم فحسب، وإنما لأنه أعلن أنه سوف يقيم حكومة القرآن. فالله تعالى ينبه المعارضين في الآية التالية أيضًا: (ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض).. فما دام قد أراد إقامة ملكه على نحو خاص فمن ذا الذي يقدر على منعه من تنفيذ إرادته؟

وخلاصة القول: أن الله تعالى يبين في هذه الآية أن كل ما نزل في سالف الزمان وما سينـــزل في المستقبل من رسالة وكلام فهو خاضع لقانون سماوي، وهو أنه إذا

صارت رسالة ما عديمة الجدوى واقتضت نزول رسالة سماوية جديدة.. نسخناها واستبدلناها بأحسن منها. وأما إذا كانت لا تزال رسالة عظيمة الجدوى ولكن أهملها الناس ونسوها.. أقمناها كما هي من جديد. ونحن قادرون على هذين الأمرين.

وتصير الرسالة عديمة الجدوى بطريقتين، فإما أنها تفسد بتحريف الناس فيها، أو أنها لا تعود تصلح لتلبية متطلبات الزمان المتطور. ومثال ذلك كمثل لباس الصبي، فإما أنه يُبليه ويشقه ويفسده فيحتاج إلى لباس جديد، أو أنه يكبر فلا يعود اللباس صالحا له بجسمه النامي.. فيحتاج أيضًا إلى لباس جديد. وهذه هي الحال بالنسبة للرسالة السماوية.. فإنها تستبدل أما لحدوث الفساد بأيدي الناس، أو لحدوث التطور في الحياة البشرية. والواقع أن الفساد لا يتطرق للرسالة السماوية إلا إذا صارت غير صالحة للعمل، وإلا فإن الله تعالى يحفظها ما دامت صالحة مفيدة. نعم، عندما لا تعود صالحة للعمل يسحب الله يده من حفظها، ويسمح للناس بالعبث بها وإفسادها، ويظن الناس أنهم يفسدون دين الله، في حين أن الله بنفسه يكون قد ترك حفظ ذلك التعليم، مثلما لا نبالي شيئا إذا عبث الأولاد بلباس بال فيمزقونه ويفسدونه.

وقد استخدم الله هنا كلمة (نأت بخير منها) ليشير إلى أنه يأتي بتعليم جديد حينما يصير التعليم القديم عديم الجدوى وجديرا بالنسخ، ذلك لأنه إذا كان التعليم القديم صالحا كافيا لما مست الحاجة إلى تعليم جديد خير منه أي أحسن منه.

والصورة الأخرى أن يكون التعليم صالحا لهم، إلا أن الناس أصبحوا لا يعملون به، ويبتدعون من عندهم ما يخالف تعاليمه. وفي هذه الصورة لا يكون هناك داع لإنزال تعليم جديد.. وإنما يكفي تقرير التعليم القديم نفسه، ولذلك قال الله تعالى (أو مثلها). وبهذا القول أشار إلى أن التعليم القديم يكون كالميت بسبب غفلة الناس عنه، ولكن تنفخ فيه الروح من جديد.. وهكذا يصبح مماثلا للقديم.

ثم إن قوله تعالى: (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير)يبطل نظرية النسخ في القرآن.. إذ لا علاقة بين القدرة الإلهية وبين النسخ في القرآن. أما المعنى الذي ذكرته آنفا فهو وثيق الصلة بالقدرة الإلهية.

ثم إن الآية التالية (ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض) تؤيد موقفي، ففيها إشارة إلى أن نزول تعليم إلهي جديد أو إحياء الكلام الإلهي القديم يتطلب انقلابا يكون مستحيلا في نظر الناس، ولكن الله قادر على إحداثه، إما بنـــزول كلام جديد أو بإحياء كلام قديم.

هذا المعنى الذي قدمته.. وإن كان جديدا -إلا أنه وحده يساعد على فهم كل كلمة من الآية. أما ما ذهب إليه المفسرون الآخرون من وجود النسخ في القرآن نفسه فما هو إلا دعوة للازدراء والاستهزاء بالقرآن.. حيث قال: لِمَ ينسخ الله حكما بعد نزوله في القرآن؟ ألم يعلم –سبحانه – قبل نزوله أنه غير صالح للناس؟ وما معنى قوله تعالى: إن الله على كل شيء قدير.. إذا أخذنا برأي المفسرين الذي ينسب إلى الله – سبحانه –الضعف لا القوة؟ ولكن المعنى الذي ذكرته ففيه إظهار أيّما إظهار للقدرة الإلهية العظيمة..حيث إنه ليس من السهل إقامة نظام مكان نظام قديم قد صار في قلوب الناس كالنقش في الحجر، لا يقبلون تركه بصورة من الصور؛ كما ليس من السهل أن يُبعث في قوم قد ماتوا معنويا، ونسوا نظامهم تماما، واتخذوا تعليمهم ظهريا..أفرادٌ ليشيدوا ذلك النظام، ويحيوا ذلك التعليم من جديد. إنه بالتأكيد عملية صعبة جدا، تدل على القدرة الإلهية العظيمة، ولأجل ذلك قال بعد هذه الآية: (ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض)..أي أنه قادر على إحداث مثل هذا الانقلاب بمنتهى السهولة.

ولو نظرنا إلى التاريخ وجدنا أن الجزء الثاني من الآية (أو مثلها)ينطبق على سيدنا عيسى عليه السلام، لأنه لم يأت بشريعة جديدة، وإنما جاء ليقدم بعض تعاليم التوراة من جديد وبصورة واضحة. كما في زمننا هذا عُهد إلى سيدنا المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام)إحداث مثل هذا الانقلاب..حيث بُعث لتجديد دين

الإسلام وإحياء تعاليم القرآن نفسه من جديد. وإلى ذلك يشير قوله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)(الجمعة)..فقوله (وآخرين منهم) يعني أنه سبحانه وتعالى سوف يبعث النبي محمدًا ﷺ في الآخرين مرة أخرى، ويقيم بواسطته جماعة تكون كالصحابة..طاهرة القلوب، عليمة بأسرار القرآن وحكمه. فكأن مهمة المهدي والمسيح الموعود هي القيام من جديد بما قام به النبي ﷺ من قبل.

ولا بد من الرد على تساؤل وارد: ما دامت سنة الله تعالى أنه عندما يحقق كتاب سماوي هدفه المنشود فإنه ينسخه ويأتي بخير منه، فهل ينسخ القرآن الكريم أيضًا في يوم من الأيام بكلام أفضل منه ؟

والجواب: لا، لأن الله تعالى قد صرح في القرآن الكريم نفسه: (إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون)(الحجر: ١٠).. أي نحن الذين أنزلنا هذا الكتاب، ونحن الذين سوف نتولى حفظه. والواضح أن حفظ الله لكلام إنما يعني كونه أفضل من أي تعليم آخر في المستقبل..فقوله تعالى (ما ننسخ من آية ..نأت بخير منها)يعني أيضًا أنه ما لم ينسخ كلام ما فمعنى ذلك أنه لا يكون هناك كلام آخر أفضل منه. فتبين أن القرآن ليس بأفضل من الكتب السماوية فحسب، بل سوف يبقى الأفضل إلى الأبد، ولا مجال لنسخه أبدا.

وقوله تعالى: (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير)..أي ألا تعلمون أن الله قادر تماما على أن يأتي بكلام أفضل، ويقيم ما اندرس من أحكامه من جديد. فمنذا الذي قدر على المجيء بما اندرس من تعاليم التوراة التي يعترف أصحابها اليهود أن سائر الصحف القديمة دمرت أثناء هجوم نبوخذنصّر على القدس؟ (دائرة معارف التوراة ودائرة المعارف اليهودية تحت نبوخذنصر). ثم منذا الذي قدر على إحياء ما صار نسيا منسيا من تعاليم كونفوشيوس؟ ومنذا الذي استطاع إحياء ما اندرس من تعاليم الفيدا؟ ومنذا الذي قدر على إقامة تعاليم الزندافستا من جديد؟ إنما هو الله

الذي قدر على كل ذلك بلا شك بإنزالها في القرآن..وإلا فلم يكن اليهود ليستعيدوا ما انعدم من كتبهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.كما أن اتباع كونفوشيوس وغيرهم ما كانوا قادرين على إحياء تعاليمه من جديد.

فمعنى قوله تعالى (إن الله على كل شيء قدير) إشارة أن الناس سوف يعترضون قائلين: منذا الذي يقدر على أن يأتي بكل هذه التعاليم من جديد، فرد – سبحانه: أننا نحن الذين نحيي هذه التعاليم من جديد.

فهذه حجة أخرى أقامها القرآن على اليهود قائلا: إن كتبكم كانت قد اندرست وانمحت، ولكن محمدا ﷺ جاءكم بها من جديد، ورفضكم لتعليمه يعني رفضكم لكتبكم. وما دام قد جاءكم بما هو أفضل مما عندكم، وفي كتابه ما يلبي حاجاتكم تماما في مجالات الحياة من مشاعر وعواطف وحضارة وسياسة وغيرها.. فكان عليكم أن تسرعوا إلى ما جاءكم به. وإذا لم تؤمنوا به وتقبلوه..فاعلموا أن ما عندكم من أحكام ناقصة لم تُلبِّ متطلبات الحياة.

الواقع أن اليهود غضبوا وقالوا: لماذا حول الله النبوة منهم إلى بني إسماعيل، وأنزل شريعة القرآن بدل التوراة؟ فرد الله عليهم قائلا: إننا قادرون على أن ننسخ التوراة ونأتي بكتاب أفضل في صورة القرآن، كما أننا قادرون على بعث نبي أفضل من موسى عليه..وهو محمد – عليهما السلام.

وكما سبق أن اليهود أنفسهم يعترفون بأن التوراة قد دمرت تماما أثناء هجوم نبوخذنصر على القدس، بل لم تكن بأيديهم حتى زمن النبي عزرا المبعوث قبل المسيح بحوالي أربعة قرون –أي نسخة من التوراة ولا من صحف الأنبياء الآخرين. فدعا النبي عزرا ربه قائلا: ربي، الدنيا مظلمة، والناس يعيشون فيها بدون نور، لأن ناموسك قد أحرق، فلا يعلم أحد ما يفعل ولا ما سوف يحدث. فلو تكرمت أنزلت علي روح القدس لأكتب شيئا مما حدث في الدنيا من الأزل وما كان مسطورا في ناموسك، لكي يهتدي الناس إلى صراطك. فأوحى الله إليه أن اعتزل

الناس أربعين يوما، وخذ معك خمسة كُتّاب، فسوف أشعل في قلبك شمعة العقل التي لا تنطفئ إلا أن يتم ما تبدأ كتابته. فأخذ النبي عزرا خمسة كُتاب، واعتزل الناس أربعين يوما، وأتم كتابة تلك الكتب بالوحي الإلهي.

٢nd (The APOCRYPHA, The American Translation ١٤ Book of ASDRAS: (٤٥-١٩)

ففي الآية توبيخ لليهود أنكم كنتم نسيتم تعاليمكم، ولكن الله منّ عليكم بأحيائها، ولكنكم بدل أن تشكروا نعمة الله هذه..تنكرون الجميل، ولا ترتدعون مطلقا عن الاعتراض على كتبكم أيضًا.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٨)

التفسير: عبارة (ألم تعلم) ليست موجهة إلى النبي الكريم ﷺ، وإنما إلى كل فرد من الناس كافة.. قارئ للقرآن أو سامع له أو غيرهما. والدليل قوله (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير). والمراد: ألا تعلم أيها الإنسان أن الله هو صاحب ملك السماوات والأرض..أي كما أن الله ينتزع الملك الدنيوي من أيدي أهل السوء ويؤتيه أهل الجدارة، كذلك ينـــزع المُلك الروحاني أحيانا من قوم ويؤتيه آخرين. وما دامت السماء والأرض كلتاهما خاضعة لحكم ملك واحد..فلزم أن يخضعا لقانون واحد، ولا بد من قياس القانون السماوي بالقانون الأرضي وبالعكس.

فتوجه الآية أنظارنا إلى أنه يجب علينا عند انعدام النص أن نقيس القانون الشرعي –وهو قانون سماوي –بالقانون الطبيعي، وهو قانون أرضي، إذ لا يمكن أن يوجد أي اختلاف في قانونهما لأن كلتيهما من حاكم واحد..هو الله جل جلاله. لقد كان الإمام المهدي والمسيح الموعود دائما وأبدا يبين هذا الأصل ويقول إن القرآن

الكريم كلام الله تعالى، والقانون الطبيعي هو فعله، ومن المحال أن يوجد بينهما اختلاف في الأصول وصانعهما واحد (الملفوظات ج١،ص ١٤٥).

فكما نرى في سنة الله الجارية في الأرض أي شعب يتمتع بالحكم ما دام أهلا له ومؤيدا لواجبات الحكم، وحينما يقصر في أداء واجباته نحو ملكه ينتزع منه الملك..كذلك تماما عندما لا يعود أي دين صالحا لتلبية متطلبات الزمن فإنه ينسخ. فاعتراضكم على اصطفاء الله محمدا بالنبوة متعارض مع القانون الطبيعي. لِم لا تقيسون القانون السماوي بالقانون الطبيعي؟ ألا ترون أنه عندما يصير شيء ما عديم الفائدة يفنى ويدمر، كما قال تعالى: (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)(الرعد: ١٨)..أي أن ما لا ينفع الناس يفنى. فنفس هذا القانون جار على الشرائع أيضًا، فإنها تُنسخ عندما لا تفي بمتطلبات العصر. فما دامت الكتب السماوية السابقة فقدت صلاحيتها لإصلاح الخلق، وما دام لا بد الآن من نزول كلام سماوي لهداية الناس فإنه وإن لم يأتِ به محمد لأتى به غيره لا محالة. وإلى هذا المبدأ نفسه أشار سيدنا المهدي والمسيح في بيت شعر معناه: كان الزمن يقتضي بعث مصلح، ولو لم أبعث لبعث الله سواي.

قوله تعالى (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير): الجزء الأول من الآية موجه للناس عامة، أما في هذا الجزء فيخاطب الله المسلمين فقط.. أن ليس لكم ولي ولا نصير سوى الله تعالى. فما دمتم قد اعتبرتم الكتب السماوية الأخرى كلها منسوخة..فمن يواليكم إذن؟ كان عيسى قد نسخ كتب اليهود فعاداه اليهود ولم يعاده الهندوس. ولو نسخ أحد كتب الهندوس لعاداه الهندوس، ولا يعاديه غيرهم؛ ولو نسخ أحد كتب الزردشتيين لعاداه الزردشتيون ولا يعاديه اليهود.. أما كتابكم –أي القرآن –فقد أعلن نسخ جميع الكتب، وما دام كتابكم ينسخ بعض ما ورد في كل كتاب من الكتب السابقة، ويُذكِّر أهلها بما نسوه منها.. فإنه قد أقام القيامة في أهلها، لذلك صارت الأمم كلها أعداء لكم، مع أن محمدا ﷺ يريد خيرهم وهم لا يفقهون، فلن يكون لكم صديق منهم.

الواقع أن قول الله هذا تحقيق لنبأ التوراة الوارد في حق إسماعيل-عليه السلام –لما أبلغه الله إلى مكة. يقول النبأ: (يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه)(تكوين ١٦:١٢)..أي أن سيفه يبقى مسلطا ضد إخوته جميعا، وسيوف إخوته مسلطه ضده..بمعنى أن الدنيا كلها ستعاديه.

وهذا هو حال سيدنا المهدي والمسيح الموعود أيضًا، لأنه مبعوث للأمم، لذلك تعاديه الأمم كلها. فنحن عرضة لطعنات الكل. لا شك أن منهم أفرادا لا يعاملوننا بالسوء، ولكنهم يفعلون هذا كأفراد وليس كجماعة. وأغرب من هذا أن الهندوس والمسيحيين والمسلمين كلهم يتحدون على عداوتنا..ويتعجب المرء ويقول متى كان الهندوس والمسيحيون أصدقاء لأهل الإسلام! وليس ذلك إلا أن المهدي والمسيح الموعود بعث لإصلاح جميع هذه الشعوب.

لقد أخبر الله المسلمين قبل هذه الآية أن اليهود يتربصون بكم الدوائر، لذلك لا تنخدعوا بظاهر أعمالهم.. فإنهم ليسوا أصدقاء لكم، والآن ينبههم إلى أن اليهود ليسوا وحدهم أعداءكم... وإنما ليس لكم من بين كل شعوب العالم من ولي ولا نصير. وتؤكد هذه الآية أيضًا أن الآية السابقة لم تذكر النسخ في القرآن، وإنما ذكرت نسخ كتب الأديان الأخرى، وإلا فكيف يعقل أن يغضب اليهود والنصارى لنسخ آيات قرآنية؟ فعداوتهم دليل قاطع على أنهم غضبوا لأن القرآن نسخ كتبهم هم.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٩)

شرح الكلمات:

يتبدل –تبدل: استبدل (الأقرب).

ضل–ضل الطريق وضل عنه: فقده؛ نسيه (الأقرب).

سواء السبيل: الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه (المنجد).

التفسير: اعترض الجهلة من الكتاب المسيحيين على النبي ﷺ بأنه كان يأمر أصحابه بالكف عن السؤال لقلة علمه – معاذ الله.

ولكن هذه الآية توضح أن الصحابة لم يُنهَوْا عن مجرد السؤال، وإنما نهوا عن تلك الأسئلة التي كان أصحاب موسى يسألونه إياها. والواقع أن وراء كل سؤال غرضا ونية، فمنه ما هو للاستزادة من العلم، ومنه ما هو للمحاجة والجدال أو إساءة الأدب أو التحقير والاستهزاء؛ والعاقل لا يسمح أبدا بتوجيه سؤال غير معقول. فمثلا إذا قام طالب في الصف بتوجيه سؤال بعد سؤال إلى الأستاذ فلا بد أن يؤنبه، ويقول له: إنك تضيع وقتنا. ولا يدل هذا التأنيب أبدا إلى قلة علم الأستاذ.

فالقرآن يمنع من طرح الأسئلة السخيفة التي لا طائل منها. ويشير إلى ذلك قوله تعالى (كما سئل موسى).

وقد ذكر الله نوعية الأسئلة الموجهة إلى موسى عليه السلام فقال: (يسألك أهل الكتاب أن تنـــزل عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة)(النساء: ١٥٤).

وكذلك يتبين من التوراة أن بني إسرائيل كانوا يسألون موسى عن كل صغيرة وكبيرة. ولكن أصحاب النبي ﷺ كانوا لا يفعلون ذلك، بل كانوا من الوقار والأدب وضبط النفس بمكان. كانوا ينتظرون حتى يأتي أحد الأعراب فيسأل النبي ﷺ، فيغتنموها فرصة لسماع حديثه (البخاري، العلم). فالله تعالى قد نهى المسلمين فقط عن سؤال يتعارض مع الشريعة ويضيع إيمان السائل، أو فيه سوء الأدب والوقاحة والكسل، أو فيه مضيعة للوقت، ولكنه لا ينهى عن أسئلة توجه لطلب العلم.

أذكر أنني والحافظ روشن علي وبعض الإخوة الآخرين كنا نتلقى دروسا في الحديث من سيدنا الخليفة الأول لسيدنا المهدي والمسيح الموعود. وكان الحافظ روشن علي يكثر السؤال ويناقش ويجادل على كل صغيرة وكبيرة لدرجة أن الخليفة الأول –رضي الله عنه –ملَّ من عرقلة الدرس بكثرة السؤال؛ وكما يقال إن للصحبة اعتبارها..فلما رأيت كثرة سؤال الحافظ وددت أن أسبقه في السؤال، وكنت عندئذ فتى في العشرين.. ذا حماس ونشاط، ففي اليوم الرابع أخذت أنا أيضًا أوجه الأسئلة. فسكت أستاذنا الخليفة الأول في ذلك اليوم، ولكن في اليوم التالي عندما وجهت إليه السؤال قال لي: أنا أسمح للحافظ المحترم بالسؤال، ولكني لا أسمح لك. ثم أضاف: أنت معي منذ مدة طويلة وتعرف طبعي. أتظن أني أبخل عليك بالعلم وأكتم عنك شيئا؟ كلا، بل إنني لم أبخل بعلمي قط، وإنما أخبرك بكل ما عندي، ومهما ناقشتني فلن أستطيع أن أزيد على جوابي. وكل ما أبدي من رأي لا يخلو من أحد اثنين: فإما أن أكون صائبا ومعقولا، ولكنك لم تفهمه واعترضت، أو أنه غير صائب واعتراضك صحيح. فإذا كان رأيي خاطئا.. فأنت تعلم أني لا أخون في قولي ولا أخدعكم به؛ وإنما كل ما أقوله عن أمانة وظن أنه هو الصحيح. فمهما جادلتني واعترضت علي فلن أزال أتمسك برأيي وأكرره. وإن كان رأيي هو الصحيح فعلا.. فيعني اعتراضك أنك لم تفهمه. وفي هذه الصورة يولد الاعتراض العناد في طبعك، ولا تجني منه شيئا. فنصيحتي لك اجتناب السؤال، والتفكر والتدبر في كل مسألة بنفسك. فإذا فهمت ما أقول فاقبله. أما إذا لم تفهمه فالْجأ إلى الدعاء ليلهمك الله العلم والمعرفة من لدنه.

وبعد هذه النصيحة لم أوجِّه إلى حضرته أي سؤال قط. وبعد بضعه أيام أُنِّب الحافظ الفاضل أيضا على كثرة السؤال أثناء الدرس، وبذلك زادت سرعتنا في الدرس، وكنا ندرس قسطا كبيرا من صحيح البخاري يوميا، إلى جانب مواد أخرى، وهذا لا يتسنى إلا إذا كان الطلاب ممتنعين عن السؤال مكتفين بسماع قول الأستاذ. مهما يكن من أمر فإنني على أثر نصيحة سيدنا الخليفة الأول بدأت

التدبر في القرآن بنفسي، وازددت بفضل الله فهما للقرآن لدرجة أنني أصبحت ألقي دروس القرآن على الملأ وأنا طالب. وكأن الخليفة الأول عندما كفّني عن السؤال.. وجّه نظري إلى التدبر في القرآن بنفسي.

وكذلك فإن الله عندما ينهى المسلمين عن السؤال فإنه يريد رفع مستواهم النظري والفكري. لا شك أن الإنسان يحتاج أن يسأل غيره. ولكن يجب عليه التفكير والتدبر بنفسه في أكثر الأحيان. لقد رأيت الناس يكثرون السؤال عن ذكر قصة آدم في القرآن. مع أنهم لو تدبروا بأنفسهم في الأمر بدلا من سؤال الآخرين.. لتمكنوا من فهم القضية.

وقوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل).. يبين أن الغرض الحقيقي من السؤال هو الاستزادة من العلم، ولكن الذي لم يسأل للعلم، بل استهزاء بالرسول وإساءة إلى كلام الله تعالى.. فإن السؤال لن يزيده إيمانا بل يؤدي به إلى هوة الكفر؛ ولو سأل للعلم ما لقي هذا المصير.

فعلى الإنسان أن يحاسب نفسه دائما، ويتجنب المناقشات غير المجدية والأسئلة التي لا طائل تحتها. لقد حدث مرة أن جاء شيخ لمناظرة ولي الله عبد الله الغزنوى – الذي كان قد رأى في الرؤيا أن نورا قد أشرق من قاديان.. ولكن أولاده حرموا منه[٥]. فقال حضرته للشيخ: إنني أناظرك بشرط أن تكون صادق النية. ويبدو أن الشيخ كان ممن يخشون الله ويخافونه، فما أن سمع قوله هذا إلا وانسحب من المناظرة قائلا: أنا لا أناظرك. فالخصوم عموما لا يكونون حسني النية في المناظرة، وإنما يقصدون الجدال وكسب الصيت، وإهانة الخصم والنيل منه، ولأجل ذلك ينهى الله المؤمنين عن مثل هذه الاعتراضات والأسئلة.

---

[٥] وبالفعل عندما ادعى سيدنا المهدي وكان ذلك بعد أن توفي هذا الولي لله، عارضه أولاده معارضة شديدة، ومنهم المولوي عبد الحق الغزنوي.

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١٠)

شرح الكلمات:

فاعفوا – العفو: المحو لغةً، ويعني محو آثار الذنب شرعا (الأقرب).

اصفحوا – صفح: ولّى صفحة وجهه (المنجد). فعندما يريد الإنسان مقاومة أحد فإنه يقابله وجهًا لوجه، ولكن عندما لا يريد المقاومة يولي وجهه، ومنه الصفح أي الاعتراض عن ذنب الغير.

التفسير: لقد رُزق إبراهيم في أواخر عمره بابنه البِكر إسماعيل من زوجته السيدة هاجر، ثم رُزق بإسحاق من زوجته الأولى السيدة سارة (تكوين١٦و١٨). ولما كانت سارة بنت خال إبراهيم فقد رأت نفسها أفضل من هاجر التي لم تكن من أسرته. وتصادف أن ضحك إسماعيل وهو صغير من إسحاق، فرأت سارة في ضحكه إهانة لولدها. ولعلها ظنت أنه يضحك ظنًا منه أنه الوارث لأبيه لكونه البكر، فغضبت وطلبت من إبراهيم إخراجه وأمه بعيدا لأنها لا تريد أن يرث إسماعيلُ إبراهيمَ مع ابنها إسحاق. أما إبراهيم فقد استاء من قولها في أول الأمر ثم خضع لرغبتها أخيرا. ولكن الله كان يريد بعث الرسول ﷺ من مكة.. فأوحى إلى إبراهيم أن افعل ما تقوله لك زوجتك سارة (تكوين ٢١). فبأمر من الله أوصل إبراهيم زوجته هاجر وابنهما إسماعيل إلى مكة، وبقيت أرض كنعان لسارة وإسحاق. وبدأ نسل إسماعيل يكثر في مكة، حتى ولد محمد رسول الله ﷺ في آل إسماعيل بمكة.

و لم يتوقف هذا التنافس بين بني إسماعيل وبني إسحاق عند هذا الحد، وإنما تحقق ما أوحى الله إلى أمِّ إسماعيل وقت ولادته (يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه) (تكوين ١٦:١٢) أي سيكون بنو إسماعيل إلى زمن ما أقل عددا من بني إسحاق، وسوف يعارض كل بني إسحاق معا بني إسماعيل ويسعون لهدمهم.

هذا الموضوع يذكره قوله تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم).. أي أن كثيرا من أهل الكتاب يريدون أن يرتد بنو إسماعيل – أي أتباع محمد ﷺ – عنه ويخذلوه. ولا يريدون ذلك لذنب أو تقصير من الرسول ﷺ أو لحسن نية فيهم.. وإنما حسدا وبغضا ومنافسة. إنهم يريدون أن تمتد منافسة سارة وهاجر إلى ألفي عام. ويتحرقون حسدا وكمدا أن سبقهم أصحاب محمد إلى الإيمان به.. وازدادوا صلاحا وهدى، ويريدون أن ينتقموا منهم بأن يحرموهم هم أيضا من الزيادة في كل خير، مع أنهم لو آمنوا كما آمن المسلمون لازدادوا مثلهم صلاحا وتقوى. وما أرادوا ذلك إلا حسدا وبغضا للمسلمين. وكلمة (من عند أنفسهم) تشير إلى أن هذه المشاعر السيئة ترجع إلى فساد نفوسهم، وليس أي تصرف من المسلمين وراء حسدهم. ذلك أن الحسد نوعان: أحدهما ما يكون سببه حَسَنا، والثاني ما يكون سببه سيئا – مثلا لو ازداد كافر ما مالا وغنى وحسده مسلم، فقد يكون حسد المسلم إما بنية كسر شوكة الكفر لأن ربه لا يريد الكفر؛ وإما لأن نفسه هو لا تتحمل أن يكون كافر ذا ثروة. ثم قد يكون الحسد بدون عاطفة دينية بسبب أهواء نفس الحاسدين فقط.

فالله تعالى يبين أن حسد اليهود ناشئ من أنفسهم.. أي لفساد وخلل في نفوسهم، وليس وراءه أي تصرف من المسلمين. فلو أن المسلمين أثاروا حفيظتهم باستهزائهم واستخفافهم لكانوا هم السبب، ولكنهم ناصحون أمناء يريدون لهم الخير. إذن فحسدهم نابع من فساد نفوسهم.

قوله تعالى (من بعد ما تبين لهم). قد يظن أحد أن أهل الكتاب يريدون رد المسلمين كفارا إما لأنهم يظنون خطأ أن المسلمين صاروا أسوأ حالا من الكفار المكيين.. فمن الأفضل أن يرجعوا إلى الكفر مرة أخرى، وإما أنهم يرون على وجه اليقين والبصيرة أن المسلمين صاروا أسوأ حالا من الكفار، فلو رجعوا إلى حالتهم الأولى كان أفضل لهم. ولكن الله يعلن أنهم لا يودون للمسلمين ذلك لخطأ في الفهم أو نصحا منهم للمسلمين.. وإنما يودون ذلك حسدا منهم ليس إلا، فإنهم يدركون جيدا أن كفار مكة أسوأ من المسلمين، وأن دين هؤلاء أفضل مما عليه

المشركون. وكانوا يعلمون جيدا أن الهدى إنما يأتي من عند الله تعالى، ومع ذلك فإنهم أرادوا انتشار الكفر وتقلص الهداية. إذن فهم ليسوا أعداء للمسلمين فحسب، بل هم أعداء لله أيضا.

لقد جاء ذكر أماني أهل الكتاب نحو المسلمين في مواضع أخرى من القرآن الكريم حيث قال الله تعالى (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم.. وما يضلون إلا أنفسهم) (آل عمران: ٧٠) وقال: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) (آل عمران ١٠١).

قوله تعالى (فاعفوا). ليكن معلوما أن الذنب يُعفى عنه ويمحى بثلاث طرق: أولا – بمحو نتائجه الدنيوية، كوقاية المذنب من عقوبة جسمانية، وثانيا – بمحو نتائجه الأخروية، كوقايته من عذاب الآخرة، وثالثا – بإزالة صدأ الذنب من لوح القلب والقضاء على الرغبة فيه. وهذا الأخير هو أفضل أنواع العفو.

وحيث إن الخطاب هنا موجه إلى المسلمين.. لذلك فلا يراد من العفو من العقوبة الأخروية وإنما المراد هو العفو عن العقوبة الدنيوية. فقد أمر الله المسلمين: لا تحاولوا معاقبتهم، بل اتركوهم.

وتشير (الفاء) السببية في قوله (فاعفوا) أن الأمر الإلهي جاء نتيجة لفعل من جانب أهل الكتاب، وهذا الفعل إنما هو محاولتهم رد المسلمين كفارا. فليس المراد من قوله (فاعفوا) أنهم يحاولون أن يردوكم كفارا لذلك فاعفوا عنهم.. ذلك لأن العفو يترتب على فعل حسن، ولكنهم لم يأتوا بأي خير، بل بالعكس قاموا بأمر خطير.. حيث خططوا للقضاء على وحدة المسلمين وتشتيت شملهم. فليس هناك أي خير لهم يستحقون به العفو عنهم.

وهذا ينشأ تساؤل: ما داموا لم يفعلوا أي خير، بل على العكس حاولوا رد المسلمين إلى الكفر واحدا فواحدا.. فلماذا أمر الله بالعفو والصفح عنهم؟

فليكن معلوما أن الله قد أراد بالعفو هنا النوع الأول فقط من العفو؛ أي لا تحاولوا معاقبتهم بهذا الخصوص، وإنما نحن الذين سوف نتولى بأنفسنا عقابهم. وأتبع العفوَ بالصفح، ومعناه إدارة الوجه إلى جانب آخر، ليقول بذلك: لا تعاقبوهم، بل ولا

تعاملوهم بقسوة وجفاء، بل أعرضوا عنهم. لذلك قال بعدها: (حتى يأتي الله بأمره)، أي أعرضوا عنهم حتى ينفذ الله أمره.. أي إهلاكهم بإنزال العذاب. فالذين ارتكبوا الجرائم المادية والجسدية والروحانية الخطيرة كهذه، وأرادوا رد المسلمين كفارا.. مع علمهم أنهم أرفع منهم قدرا وشأنا، وذلك فقط لحسدهم الناشئ عن فساد قلوبهم وخسة نفوسهم.. فلا يقدر على عذابهم حق العذاب إلا الله تعالى. لأن الإنسان يقدر فقط على تعذيب الجسم، ولا يستطيع تعذيب العقل والضمير والروح. ولكن الله هو الذي يملك ذلك بلا شك وبكل تأكيد. فجسم الإنسان وقلبه وعقله وروحه تحت تصرفه، لذلك قال الله تعالى: اتركوهم لنا، فنحن نعذبهم عقليا وفكريا، ونعذبهم نفسيا وروحيا.

وهذا هو بالضبط ما حدث. فلما تجاوز اليهود حد مضايقة المسلمين باللسان إلى إيذائهم بالمكائد السياسية ومؤامرات القتل.. أذن الله للمسلمين بقتال اليهود، وألحق بهم على أيدي فئة مسلمة شر خزي وأسوأ ذلة.

وَأَقِيمُوا الصلاة وَآتُوا الزكاة وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١١)

التفسير: قوله تعالى (وأقيموا الصلاة). لما كان أمر الله بالإعراض عن هؤلاء اليهود وتفويض أمرهم إليه شاقا على المسلمين لذلك قال لهم: إذا تضايقتم من حالكم أمام العدو، وغضبتم وشق عليكم الصبر.. فعلاج ذلك هو التضرع والابتهال إلى الله، والدعاء في الصلوات أن يهديهم بنفسه، أو إذا كتب عليهم الحرمان من الهدى فيحميكم من شرورهم، ويدفعهم عن طريقكم.

(وآتوا الزكوة). والعلاج الثاني هو مساعدة الفقراء بالصدقات، وحسن العشرة مع اليتامى والمساكين والأرامل، والنهوض بالطبقة الفقيرة من القوم، وتأليف قلوب أولئك الكفار الباحثين عن الحقيقة بحسن النية. وفي هذا إشارة أيضا إلى أن فيهم

أناسا نريد لهم النجاة من العذاب، فضموهم إليكم بحسن المعاملة، حتى إذا خرجوا من بين ظهرانيهم دمرنا الباقين بالعذاب.

(وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله). لما كان الصبر أمرا صعبا جدا، لذلك قال: لاتظنوا أن التمسك بالصبر يضركم.. كلا، بل إن الصبر في حد ذاته حسنة كبيرة، وسوف يندرج في أعمالكم الحسنة كالصلاة والصوم وغيرهما، وسوف تثابون عليه يوم القيامة ثوابا كبيرا جدا حتى أنكم تتحيرون عندئذ وتقولون: لم نفعل حسنة ذات شأن حتى ننال كل هذا الجزاء. ولكن هذه الحسنة تستحق عند الله هذا الجزاء الكبير.

الواقع أن أهل الدنيا يعتبرون الصبر جبنا، فيحرمون من هذه الحسنة، مع أن هناك بونا شاسعا بين الصبر والجبن. فالصبر يعني البقاء داخل نطاق الأمور التي حددها الشرع، ولكن ليس من الصبر أن يترك الإنسان حقوقه ويصرف النظر عن مقاصده وأهدافه. فالفارق بين الصابر الحقيقي والجبان أن الصابر يتحلى بالصبر ما دام الشرع يأمره بالصبر، ولكنه عندما يغار على شرف دينه وعزته فإنه يظهر للعالم أن لا نظير له في الشجاعة، وأنه لا يخاف من تقديم أي تضحية. ولكن علامة الجبان أنه لا يصبر اتباعا لأحكام الشريعة، وإنما يسمى سلوكه التلقائي صبرا، وتدل العواقب أنه لم يكن صابرا بل كان جبانا. الصبر يعني إذا سبّك أحد فلا تسبّه، وإذا ظلمك أحد فلا تنتقم على ظلمه حتى يأذن لك الشرع بذلك. ولا يعني الصبر أن تغفلوا الدفاع عن أنفسكم، وتدَعوا الناس يسومونكم خسفا في أمر الدين، لأن ذلك لا يبعث على الشجاعة والبسالة وإنما يخلق الجبن. والجبن ليس جمالا وإنما هو دمامة. فمن صفات المسلم أن يقوم بالتضحية عندما يدعوه الشرع بالبذل والتضحية.. وإن كان العالم كله خلافه؛ وأن يتحلى بالصبر إذا أمره الشرع بالسكوت والصبر. ولا يعني ذلك أنه يسكت خوفا من قوة العدو، وإنما لأن الله تعالى قد أمره بالصبر عندئذ. والذي يصبر ويسكت ولو للحظة واحدة خوفا من قوة العدو فإنه جبان. والجبان لا يستحق البقاء بين صفوف حزب الله المقدس.

فالصبر أن يداوم الإنسان على مقاومة المنكرات التي تعترض طريقه حاليا، وأن يكون مستعدا لمقاومتها في المستقبل. كما يعني الصبر أن يداوم على الحسنات التي يفعلها الآن.

ومن البصر أيضا ألا يضيق الإنسان ذرعا عند حلول المصائب، ولا يفقد الهمة عند نزول الخطوب.. من موت قريب، أو نقصان مال أو ما إلى ذلك؛ بل عليه بالسكينة والوقار، متذكرا أن ما عنده ليس ملكا له، وإنما هو عطاء من الله.

وهذا الصبر على نوعين: أولهما- هو الصبر على ما يأتي من ابتلاء من عند الله تعالى ولا دخل للخلق فيه، وثانيهما — هو الصبر على ما يبتلى به من قبل الخلق. ومثال على النوع الأول موت قريب أو مرض، أو قحط ومجاعة، أو نقصان في المال لنشوب الحرب أو غير ذلك.. فهذا مما لا قبل للإنسان به، والرضا بقضاء الله في استقامة وثبات هو الصبر في مثل هذه الأحوال. أما فيما يبتلى به بالمعاملات مع المخلوق فإنه يستطيع في بعض الأحيان مقاومة المخلوق. فمثلا لو لطمه أحد أو آذاه فبوسعه أن يرد عليه باللطم إن كان اللطم هو الأصوب، أو بالكلام المناسب إن كان الرد باللطم منافيا للمصلحة العامة أو كان يفسد المعتدي أكثر. ولكنه لو امتنع عن الانتقام كان صابرا.. شريطة ألا يكون امتناعه جبنا وخوفا بأنه لو لطمه لضربه أكثر.

فصبره على ما يُبتلى به من عند الله تعالى يعنى عدم الجزع عند عجزه عن إزالة الخطْب. وصبره فيما يختص بالمخلوق يعنى امتناعه عن الانتقام رجاء مصلحة عُليا.. بشرط مقدرته على الانتقام، أما لو كان أحد مقيدا في غرفته ولا يجد منفذا للفرار ثم قال: أنا صابر، فليس ذلك من الصبر في شيء، لأنه لو استطاع الفرار لفر.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٢).

التفسير: وقد ورد مضمون هذا الآية بصورة مختلفة في ثلاثة أماكن من القرآن الكريم، أولها قوله تعالى: (قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) (البقرة ٨١).. أي يزعم أهل الكتاب أنهم يدخلون النار، ولكن الله سوف يعاملهم برفق ولين فيخرجهم منها بعد اثني عشر شهرا، بل قبل تمام السنة، وذلك ما تذكره كتبهم (الموسوعة اليهودية). وثانيها قوله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إنْ كنتم صادقين) (البقرة: ٩٥). وهذا رد على مزاعم بعض اليهود أنهم لايذوقون النار أصلا، بل كلهم يدخلون الجنة ولا يدخلها غيرهم مطلقا. فأمر الله محمدا ﷺ أن يقول لهم: إن كنتم حقا أصحاب الجنة من دون الناس فلم لا تسعون لذلك وتقدمون التضحيات التي هي بمثابة الموت، أو لماذا لا تباهلوننا على الموت؟

وثالثها هذه الآية. والحق أنها إدماج جملتين مستقلتين تقديرهما: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا؛ وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كانوا نصارى؛ ذلك لأنه لن يقول أحد من اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى، كما لن يقول ذلك أحد من النصارى.

إن أهل الكتاب الذين بزعمهم يُحرم غيرهم من الجنة مختلفون فيما بينهم لدرجة أن بعضهم يحرِم الآخر من الجنة. فريق منهم يدعي أن اليهود يدخلون النار لكنهم يخرجون سريعا. فقد ذكر سيل SALE أيضا أن من الحقائق المسلم بها عند اليهود أن أي يهودي – مهم كثرت ذنوبه – لا يمكث في النار أكثر من أحد عشر أو اثنى عشر شهرا، ما عدا يهوديين: دائن وإيبي رام، باستثناء الدهريين، فهم يعذبون فيها للآن (ترجمته للقرآن تحت قوله تعالى: وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة). كما

أن صاحب دائرة المعارف اليهودية قد أثبت هذه العقيدة اليهودية بنصوص من الكتاب التلمود (تحت كلمة Gehenna).

أما الفريق الثاني من اليهود فيزعم أن اليهود لن يدخلوا النار أصلا. بينما هناك فريق ثالث من اليهود والنصارى يُضيِّق نطاق النجاة أكثر من ذلك، فيرى أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود دون سواهم. أما النصارى فيرون أنه لن يدخل الجنة إلا النصارى فقط.

ثم إن بعض النصارى يعتقدون أن الجحيم على نوعين: دائم ومؤقت. فإن دخل النصراني الجحيم دخل الجحيم المؤقت ثم يخرج منها. في حين يعتقد بعضهم أن أي نصراني يُكِنُّ في قلبه حب المسيح ولو بقدر ذرة فلن يدخل النار مطلقا.

ولقد أدت مثل هذه العقائد بأهل الكتاب من يهود ونصارى إلى أن بدءوا يخطئون بعضهم البعض، وتشددوا في ذلك لدرجة أن قال اليهود: لن يدخل النصارى الجنة وإن كانوا مؤمنين بالتوراة؛ وقال النصارى: لن يدخل اليهود الجنة وإن كانوا مؤمنين بالتوراة.

وحسب ترتيب مضمون الآيات فقد كان سياق أولى هذه الآيات- (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) أن ذكر الله دعوى النبي ﷺ، وبيَّن أن اليهود يعارضونه. ولكنهم لا يعارضونه عن أمانة وحسن نيه. لاشك أن المعارضة ليست محرمة، لأن لكل واحد الحق في أن يعارض رأيا إذا لم يفهمه ورآه غير صائب، لكنه لو فهمه ورآه صوابا ثم عارضه فلن يعتبر أمينا في معارضته. فالمعارضة أمر جائز شريطة أن يكون مبنيا على حسن نية وأمانة، وليس عن تعصب وعناد، كما يجب مراعاة أسلوب شريف في إبدائها.. إذ لولا المعارضة الإيجابية لتوقف ازدهار العلم، لأن جميع التطورات العلمية مدارها الاختلاف. ولكن الله يقول: إن هؤلاء يعارضون تعصبا وعنادا، ويقلبون حقائق القرآن أمام الناس، لذلك فلا أمانة ولا صدق في أقوالهم وأعمالهم. إنما تكون معارضتهم إيجابية مبنية على صدق وأمانة إذا وجدوا المسلمين على خطأ حقا.. ثم برهنوا على خطئهم. إنهم يخفون الحقائق، ولا يأتون بدليل على ما يقولون.. فلا شك في سوء نياتهم، وليس ذلك إلا لزعمهم

أنهم لن يدخلوا النار. وحينما ترى أمَّة أن النجاة حكر عليهم وإرث لهم.. خلت قلوبهم من التقوى. ذلك أن الناس على نوعين: منهم من يطيع خوفا، ومنهم من يطيع حبا. فالطبقة السفلى في الإيمان تتجنب المنكرات خوفا من العذاب، أم الطبقة العليا منهم فإنها تتورع عنها حبا لله تعالى وشكرا على نعمه. يقول الله إن هؤلاء القوم قد انحطوا لدرجة أنهم ما كانوا ليجتنبوا الإثم إلا خوفا من العذاب، ولكن أصحابهم قالوا إنكم لن تدخلوا النار أبدا. فزال عنهم خوف العذاب وتشجعوا على فعل المنكرات. يمكن للدهري أن يتحرر كما يشاء، ولكن هؤلاء بالرغم من انتسابهم إلى دين سماوي يأتون ما لا يأتيه الدهريون أيضا.

أما الآية الثانية (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) فتبين أن الأمم التي تحسب النعم الإلهية حكرا عليها .. لا ترغب في البحث عن الهداية، إذ إنما يبحث عن الهداية من أيقن أن باب الهداية السماوية والنعم الإلهية مفتوح للجميع. أما الشعب الذي يعتقد أن الهداية مخصوصة به فلن يصدق إلا بما ورد في كتبه، ولن يبحث عن الحقيقة في مكان آخر على الإطلاق، وبالتالي يُضيِّق نطاق الهداية بقصر النجاة عليه دون غيره، ويلجأ إلى التعصب ويخلو من التقوى.

أما آيتنا هذه (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا) فمضمونها أن مثل هذا المعتقدات من شأنها أن تؤدي حتما بأصحابها إلى تضييق نطاق النجاة شيئا فشيئا حتى يحرِّم بعضهم على البعض النجاة، ويختفي عن أنظارهم عنصر التقوى الذي هو المدار الحقيقي للنجاة.. في حين أنه يجب ألا يظن أحد في أي زمان أن باب الهداية مغلق، بل عليه أن يكون مستعدا لقبول كل ما ينزل الله من كلامه.

ليكن معلوما أن قول اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا.. ليس في حد ذاته بالأمر القبيح، ذلك لأن أتباع كل دين يحسبون أنهم الناجون؛ والمسلمون أنفسهم يحسبون أنه لن يدخل الجنة سواهم. فليس معنى الآية أن اليهود أو المسيحيين لماذا يحصرون النجاة في دينهم، وإنما المراد أنهم يحصرون النجاة في اليهودية أو المسيحية،

ثم يضيّقون دائرة فيضان الله الواسع، ويحرمون بزعمهم هذا جزءا كبيرا من النـــاس من رحمة الله الواسعة.

لا شك أن الإسلام يدعي بأنه لا نجاة لبني البشر إلا فيه، ولكنه مع ذلك لا يغلـــق باب الهداية السماوية، بل يقول (وبالآخرة هم يوقنون).. أي من علامات المؤمنين أنهم كلّما يأتيهم كلام جديد من الله تعالى يؤمنون به من فورهم. إنهـــم يربطـــون النجاة بالإيمان بكلام الله، سواء كان قد نـــزل في الماضي أم سينـــزل في المستقبل. ولكن اليهود على عكس ذلك يزعمون أن لا نجاة إلا لشعب بني إسرائيل، وهم لا يُدخلون أحدا في دينهم.. لأنهم لا يؤمنون بنجاة أحد هو ليس من شعبهم. إنهم لا يربطون النجاة بدينهم وإنما بشعبهم فقط.

أما النصارى فهم لا يربطون الخلاص بشعبهم بل بدينهم، ويقولون: يمكن لكـــل واحد مهما كان شعبه أن ينجو من النار بالإيمان بالمسيحية. وكأن هناك تـــشابها ظاهريا بين المسيحية والإسلام في دعوة الشعوب الأخرى للإيمـــان بـــه وكـــسب النجاة. وهنا ينشأ تساؤل: إذا كان ادعاء النصارى بألاّ نجاة إلا في النصرانية محـــل اعتراض، فلم لا يعترض على ادعاء المسلمين ألا نجاة إلا في الإسلام؟

ليكن معلوما أن هذا التشابه الظاهري بينهما ليس له ظل من الحقيقة، وإنما هو وهم وخيال. ذلك أن سائر النصارى – رغم أنهم يدعون كل الشعوب إلى دينهم – إلا أن دينهم لا يسمح لهم بذلك، حيث ترفض أناجيلهم بكل صراحة.. فقد قيل لهم: (لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا دركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم) (متى ٦:٧) فقد شبه المسيح هنا تعليمه المقدس باللآلىء والدرر وأمر أن تبقى هذا الدرر منحصرة في أيدي الإسرائيليين..ولا توهب لغيرهـــم، لأن الشعوب الأخرى – حسب ما جاء في الإنجيل – كالكلاب والخنـــازير الـــتي لا تقدرها حق قدرها، بل تشن عليها الهجوم بالاعتراض عليها وبتحريـــف معانيهـــا وهتك سترها. وقيل أيضا (هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قـــائلا: إلى طريق أمم لا تمضوا. وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) (متى ١٠: ٥و٦). ويستدل المسيحيون من كلمة (بـــالحري)

أنهم أمروا بحصر دعوتهم إلى النصرانية في بني إسرائيل في البداية فقط، أما فيما بعد فكان لا بأس من نشرها في الشعوب الأخرى. ولكن يبطل استدلالهم هذا في نفس الإصحاح حيث قيل: (... فإني الحق أقول لكم لا تكلمون مدن إسرائيل حتى يرجع ابن الإنسان)(متى١٠:٢٣). وهنا يخبرهم المسيح أن لن تبدأوا دعوة الشعوب الأخرى إلى المسيحية قبل مجيء ابن الإنسان. نعم، عندما يأتي ابن الإنسان يسمح لكم بنشر المسيحية في الشعوب الأخرى أيضا. ولقد فسرت هذا الفقرة كلمة (بالحري) تفسيرا جيدا.

وقيل أيضا: (فأجاب وقال: لم أُرسَل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة)(متى١٥: ٢٤). وهنا اعترف المسيح أنه لم يرسل إلى أحد سوى بني إسرائيل فلم يُبق مجالا لنشر المسيحية في غيرهم من قبل ومن بعد.

وكذلك ورد: (وأما يسوع فقال لها: دعي البنين أولاً يشبعون، لأنه ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب) (مرقس٧،٢٧). وهذه الفقرة تتضمن نفس ما جاء آنفا في (متى٦، ٧).

ولكن الإسلام على عكس ذلك.. لا يحدد دعوته في شعب معين، فأمر الله نبيه ﷺ في القرآن: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا) (الأعراف: ١٥٩). وفي مكان آخر قال جل شأنه (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشرا ونذيرا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (سبأ:٢٩).

كما أن الرسول بنفسه أعلن: (كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود)، وقال أيضا (أرسلت إلى الخلق كافة) (مسلم، المساجد).

فقد بين القرآن المجيد والرسول الكريم أنه لم يكن خاصًا بشعب أو بلد، وإنما رسالة الإسلام للعالم أجمع. فعلى الرغم من التشابه الظاهري بين المسيحيين والمسلمين فإن المسيحيين يقولون ما يرفضه دينهم. ما دام الله تعالى لم ينزل تعاليم المسيحية للشعوب الأخرى، فكيف ينالون النجاة باعتناقها؟ وكما أن الحكومة إذا أمرت

أحدا بالذهاب إلى مكان فذهب غيره إلى ذلك المكان فلا بد أن يعاقب هذا؛ كذلك إذا تنصر أحد من غير الإسرائيليين فلا ينال ثوابا وإنما عقابا.

ثم إن الإسلام مختلف من ناحية أخرى، وهي أن اليهود والنصارى قد ادعوا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، ولم يذكروا هنا أن غيرهم لن يدخلها في بداية الأمر ولكن فيما بعد يدخلها، بل ذكروا أنه لن يدخلها أحد سواهم.. ولو بعد آلاف بل ملايين السنين. وهنا أيضا يختلف الإسلام بصدد هذا النظرية، فهو لا يقول بدوام عذاب النار، بل يقول إن كل إنسان – حتى وإن كان ملحدا – لا بد أن يدخل الجنة في آخر الأمر، لأن الهدف من خلق الإنسان أن يصير عبدا لله، وإذا لم يتحقق هذا الهدف فخلقه عبث. يقول الله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات: ٥٧). وقال أيضا (فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) (الفجر).. أي يا ذا النفس المطمئنة- ادخل في عبادي وفي جنتي. وهذا يثبت أن الله قدّر لكل إنسان أن يدخل الجنة، ولولا ذلك لبطل الغرض من خلقه؛ وقام الاعتراض على الله تعالى بأن الهدف الذي خلق الإنسان من أجله لن يتحقق.

ثم هناك فرق بارز آخر بين نظرية الإسلام والمسيحية للنجاة، في الإسلام يعترف بأن سلسلة الوحي من الله سارية للأبد، ولا بد من الإيمان بكل ما ينزل الله من وحي. ولكن المسيحية لا تقول بذلك، وإنما تحدد الوحي إلى زمن المسيح فقط، وتقول إنه لا يمكن الآن نزول الوحي ولو كان شرحا وتفصيلا لما سبق من الكتاب. لذلك لو أنزل الله أي وحي كشرع جديد أو بيانا لشرع سابق لرفضوه بناء على عقيدتهم هذه. ولكن المسلمين لابد أن يقبلوه. لأن الله تعالى قد ذكر علامة المسلمين الصادقين بقوله (وبالآخرة هم يوقنون) (البقرة: ٥).. أي أنهم يؤمنون بكل هدي جديد من الله تعالى كما آمنوا بما سبق.

فالمسيحيون يضيقون دائرة النجاة، ويحرمون البشر من هدي الله بزعمهم انقطاع أي نوع من الوحي، ولكن الإسلام قد فتح هذا الباب.. وقال إنه لا بد من الإيمان بالوحي الذي ينزل لتقوية الإيمان وزيادة علم الإنسان. وأخبر اليهود والنصارى

أن الله ليس إلههم وحدهم فحسب، وإنما هو إله للناس كافة، وأنه كان منذ خلق الكون يهيئ الأسباب لهداية خلقه كلهم، ولن يزال يهديهم في المستقبل أيضا.. فلا تحددوا فيضان رحمة الله الواسعة، ولا تجعلوا من هذا البحر الذي لا شاطئ له ينبوعا قد جف ماؤه، ولا تجعلوا الله إلها قوميا بتخصيص النجاة لكم دون سواكم. وقصارى القول: إن الله- بكل صراحة –قد قرن النجاة بالإيمان الذي صاحبه مستعد عن طيب خاطر لقبول ما يأتي من الله تعالى من هدي، وإلا لما نعى الله هنا على المسيحيين الذين قالوا بفتح باب النجاة للآخرين أيضا. ما عابهم الله تعالى إلا لأنهم ليسوا على استعداد لقبول أي وحي بعد كتابهم. ولو اعتقد المسلمون أيضا بمثل اعتقادهم لعُدّوا عند الله من المجرمين.

ويبين قوله تعالى (تلك أمانيهم) أنه عندما تبدأ أمة بالتقهقر بدل التقدم والرقي.. فإنها بدل أن تقدم فعالا من عمل صالح وسلوك نبيل.. تصبح صورة مجسمة للحسرات والأماني. وبينما يحدث غيرها انقلابات في العالم بالجد والكدح وتحمل المشاق وبذل التضحيات.. فإن هؤلاء المتقاعسين عن تحمل المشاق، الخائفين من بذل التضحيات، المتطفلين على موائد الآخرين تطفل ابن آوى على فضلات الأسد.. يبنون قصورا في الأحلام. فماذا يغني الإنسان قوله: كان أبي كذا وكذا، ونحن أمة موسى أو عيسى أو آل محمد؟ إنما ينفع الإنسان انتسابه إلى أمته إذا عمل عملهم.

وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) يعني إئتونا بدليل على ألا نجاة إلا لليهود والنصارى إن كنتم صادقين في زعمكم هذا. وهذا هو نفس الدليل الذي ذكرته آنفا.. أعني إذا كنتم حقا أصحاب الجنة دون سواكم فيجب أن تحظوا بأفضال ونعم سماوية، وتتشرفوا بكلام الله تعالى. إذا كان اليهود هم الناجون فوجب أن يثبتوا وجود هذه الأفضال فيهم. وإذا كان النصارى هم الناجون فلا بد أن يدللوا على أن الله تعالى يوحي إليهم ويؤيدهم بآياته. ذلك لأن الله تعالى قد ذكر في القرآن الكريم أن للمؤمنين جنتين: إحداهما دنيوية والثانية أخروية (ولمن خاف مقام ربه جنتان)(الرحمن: ٤٧). فإن كانوا صادقين في دعواهم فليخبرونا أين

جنتهم الدنيوية، وليثبتوا أن الله ينعم عليهم بأفضاله وبركاته، أو يؤيدهم بكلامه، ويقربهم وينصرهم عند الملمّات بآيات خارقة للعادة. فإن كانوا كذلك فإنهم ناجون بلا مراء.. وإلا فليعلموا أنهم محرومون من بركات الله في الدنيا، وسوف يحرمهم من النجاة في الآخرة.

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٣).

شرح الكلمات:

أسلم – سلم نفسه إلى غيره كلية (الأقرب).

وجهه – الوجه له معانٍ عديدة منها: العناية والاهتمام؛ نفس الشيء، صفحة الوجه (الأقرب). وكل هذه المعاني تنطبق هنا. فيكون معنى العبارة: أولا–من وجّه كل الاهتمام والعناية إلى الله. ثانيا – من سلَّم نفسه وذاته لله كلية ووضع يده في يد الله. ثالثا – من صوَّب وجهه إلى الله و لم ينظر و لم يلتفت إلى غيره.

محسن –الإحسان يقال على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير.. يقال: أحسن إلى فلان والثاني إحسان في فعله، وذلك إذا علم علما حسنا أو عمل عملا حسنا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه): الناس أبناءُ ما يُحسنون (المفردات).. أي منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملون من الأفعال الحسنة، ويكرَّمون بسبب ما يتقنونه من علم أو عمل. فالنجار – مثلا – يمكن أن يكون قادرا على شيء من الزراعة أو الحدادة.. ولكنه يسمّى نجارا لكونه يتقن النجارة أكثر من أي عمل آخر. وهكذا الحال بالنسبة للكاتب أو الطبيب وغيرهما.

فالمحسن من يكون متقنا في معرفة شيء أو في عمله. ولذلك قالوا: أحسن الشي: جعله حسنا. وفي القرآن: (الذي أحسن كل شيء خلقه) (السجدة: ٨).. أي الذي خلق كل شيء، وأودعه أفضل القوى للقيام بعمله.

والإحسان أعم من الإنعام؛ إذ إن الإنعام إنما يكون على الآخرين فقط، ولكن الإحسان يكون للإنسان نفسه ولغيره أيضا. فالإحسان هو صنع المعروف لكل البشرية بلا استثناء. والإحسان أفضل من العدل أيضا، لأن العدل أن يعطي الإنسان ما عليه لا أكثر، ولكن الإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له(المفردات).

وأحسن أتى بالحَسَن، أي قال قولا حسنا، أو علم علما حسنا، أو عمل عملا أحسنه، وهو ضد أساء. وأحسنه: علِمَه جيدا. يقال فلان يحسن القراءة أي يعلمها جيدا وأحسن له وبه: صنع به معروفا. (الأقرب)

ومعنى العبارة (من أسلم وجهه وهو محسن) أنه يسلم نفسه لله تماما ويطيع رسوله حق الطاعة. فقد روي عن عائشة (رضي الله عنها) قول النبي ﷺ: من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد (البخاري، كتاب البيوع).. أي من عمل ما لم نأمر به فعمله مردود مرفوض؛ لأن الرسول الذي جاء بكلام الله هو الأجدر بفهم هذا الكلام.

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ سئل مرة: ما الإحسان؟ فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك (البخاري، كتاب الإيمان). والحق أن النبي ﷺ قد ذكر هنا معيارا لمعرفة المكانة الروحانية التي يتمتع بها أي إنسان. فقد بين أنه يجب على الإنسان إتقان عبادة ربه لدرجة يستطيع بها رؤية الله تعالى، أو تستولي عليه الخشية لدرجة الشعور أنه واقف أمام ربه. إن الإنسان عندما يوجه عنايته إلى ربه ترتفع معنوياته وتتقوى.. كالجيش المنهزم عندما يرى مليكه فيتشجع ويثبت في مكانه. ولكن الإنسان إذا لم يحصل على إحدى هاتين المكانتين فلا يعد محسنا.

فقوله تعالى (من أسلم وجهة لله وهو محسن) يعني على ضوء ما روته السيدة عائشة (رضي الله عنها) أن من وجّه كل عنايته إلى الله واتبع النبي حق الاتباع. ومعناه على ضوء ما جاء في الرواية الأخرى: من وجّه كل عنايته إلى الله وبلغ من حيث الروحانية درجة كأنه يرى الله تعالى؛ أو انقاد لأوامر الله كأنه من ناحية يطيع أوامره، ومن ناحية أخرى يصل علمه إلى درجة الكمال، وعمله إلى درجة العرفان.

التفسير: هذه الآية جواب لقولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى)، ويبين الله هنا أن الإسلام يعني إنشاء علاقة وطيدة بالله، وحب خلقه والعطف عليهم، وإنما الناجي من يسلم نفسه إلى ربه كل التسليم من ناحية، ولا يمد يده للسؤال إلا إليه، ومن ناحية أخرى يكون من غنى النفس بحيث يعفُّ عن السؤال من غيره، بل ويعطي الجميع بسخاء. وقد أشرت إلى نفس الموضوع في بيت من شعري، ومعناه: أعط كل الخلق، ولكن لا تمدن يديك إليهم للسؤال.

فهذه هي ميزة المحسن أن يسأل الله ما يحتاجه، ثم يسخو به على الخلق. والواقع أن الانقياد لله والتوجه إليه والشفقة على خلقه هي خلاصة تعاليم الإسلام. ولقد اعترض البعض كيف أن سيدنا المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام) يقول في كتبه أن تعاليم الإسلام تتلخص في الانقياد لله تعالى والشفقة على خلقه (البراهين الأحمدية ج٥ص٢٩). والحق أن هذه الآية هي التي تقرر ذلك. فقوله تعالى (من أسلم وجهه لله) تتضمن معنى الانقياد لله، وقوله تعالى (وهو محسن) يعني الشفقة على خلقه. وقوله (بلى) يشير إلى أن النجاة تكون لمثل هؤلاء وليست لكم يا أهل الكتاب، فإن لهم أجرا عظيما عند ربهم.

فقول الله هذا يتضمن نكتة لطيفة، وهي أن أهل الكتاب ادّعوا بأن النجاة مخصوصة بهم، ولكن الله يبين أن النجاة ليس مدارها اعتناق على دين معين، وإنما هي في الانقياد التام لكل ما يأتي من عند الله تعالى.. وهذا هو الإسلام الحقيقي وإنكاره يحرم من النجاة.

أما فيما يتعلق بمسألة: من هو الناجي، ومن ليس كذلك؟.. فليكن معلوما أن الإسلام إنما يحكم بالنجاة كقاعدة للذين هم مصداق قول الله (من أسلم وجهه لله وهو محسن).. وإلا فالله مالك يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.. فمنذا الذي يمنعه إن أراد أن يغفر لهندوسي أو سيخي أو مسيحي أو يهودي؟

وقوله تعالى (بلى، من أسلم وجهه لله) يشير كذلك إلى أن من واجب المؤمن الصادق أن يسلم نفسه تماما لله تعالى، ويجعل حاجاته الدنيوية تابعة لحاجاته الدينية.

وقد يبدو هذا الأمر تافها في بادئ الأمر، ولكن الحقيقة أن هذا هو الفارق بين الإسلام والأديان والأخرى. فالإسلام لا ينهى عن طلب العلم، ولا عن كسب المال أو التجارة أو الصناعة أو الحرفة، ولا عن توطيد دعائم الحكم، وإنما يريد له ذلك بوجهة نظر معينة.. فلكل عمل في الدنيا وجهتا نظر: إحداهما تقوم على كسب اللب من القشر، والثانية تقوم على كسب القشر من اللب. فالذي يريد كسب القشر من اللب ليس من الضروري أن ينال مرامه، وإنما يمنى بالفشل في أكثر الأحيان، ولكن الذي يحاول الحصول على اللب يجد اللب والقشر أيضا. فكل ما بذله النبي ﷺ وأصحابه من جهود كانت لنشر الدين، ولكنهم لم يحرموا من نعم الدنيا. والحق أن الذين يطلبون الدين تتبعهم الدنيا كأنها أمَة لهم، ولكن ليس من الضروري لطالب الدنيا أن ينال الدين أيضا. فأحيانا لا ينالون الدين، وأحيانا أخرى يحرمون مما تبقى في أيديهم من الدين.

وقوله تعالى (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون): الخوف يكون مما يخفيه المستقبل، وأما الحزن فيكون على ما حدث في الماضي. يقول الله تعالى: إن مستقبل المسلمين مصون محفوظ، فلن يضرهم كيد الكائدين، كما أنهم لا يقلقون مما صدر عنهم في الماضي.. ذلك لأن الله لو لم يغفر لهم ما اقترفوه لطاردهم التفكير فيما ارتكبوا من الأخطاء في السنين الماضية من عمرهم. ولكن المسلم ما أن يسلم وجهه لله ويدخل في الإسلام إلا ويغفر الله له ما تقدم من ذنوبه. فماضي المؤمن لا يقلقه ولا يحزنه لأنه يصير بعد الإيمان كما ولدته أمه. لا شك أنه لو ارتكب أي ذنب بعد الإيمان فلا بد أن يدرج بقائمة أعماله، ولكن فيما يتعلق بالذنوب السابقة فإن التوبة تمحوها تماما. فخلاصة القول أن الله قد أوضح هنا أن من كان ذا صلة متينة بالله، وأحسن إلى خلقه.. فلا خوف عليه ولا حزن، لأنه يحفظ نفسه في كنف الله جل وعلا. إنما يطارد الخوفُ مَن لا يؤمن بالآخرة أصلا، فيخاف مِن الموت متمنيا طول زمن الملذات؛ إذ يعلم أنه يصير بالموت ترابا، فلن يتمتع بملذات العيش، أو يطارد الخوفُ مَن يؤمن بالآخرة ولكنه لا يعمل طبقًا لإيمانه.. فيخاف من الموت لعلمه أن

الله تعالى سوف يحاسبه. ولكن المؤمن الصادق في إيمانه، العامل بحسب هذا الإيمان فلا يخاف ولا يخشى.

ثم يقول الله تعالى إن العلامة الثانية للمؤمنين الصادقين أنهم لا يحزنون. علما بأن هناك فرقا بين الحزن وبين الصدمة التي تصيب الإنسان عند ضياع شيء ما لشدة علاقته به ومحبته له. فالله لا يمنع من الشعور بالصدمة أو إظهاره. أما الحزن الذي يُنفى عن المؤمن فهو قلقه على ما صدر منه من تقصيرات في الماضي، وظنه أنه سيحرم من تأييد الله بسببها. ينفي الله عنهم هذا الحزن لأنهم يؤمنون بحب الله وقدرته إيمانا كاملا.. ويدركون أن الله لن يضيع عباده المخلصين.

الترتيب والربط:

قبل الآيتين رقم ١٠٥ ورقم ١٠٦ ذكر الله المخططات اليهودية التي دبروها بالتآمر مع القوى الخارجية. ثم بدأ من هاتين الآيتين في ذكر مخطط يهودي آخر.. وهو أنهم يحاولون تثبيط همم المسلمين، ويريدون أن يوقعوهم في خطيئة إهانة رسولهم بطريق أو آخر؛ فيحرموا هم أيضا من النعم الإلهية.

ثم بين في الآية رقم ١٠٧ أننا عندما ننسخ أي كتاب سماوي نأتي بأفضل منه، فعلى اليهود أن يفكروا جيدا: هل يجدون أي مثال لأمة نجحت من قبل في إيقاف نشر وتأثير رسالة سماوية لموسى أو لغيره من الأنبياء حتى يظنوا أنهم سينجحون الآن ضد محمد ﷺ.

وتناولت الآية رقم ١٠٨ أن هذا الكتاب أنزله ملك السماوات والأرض، فلا شك في أن عواقب معارضتهم له خطيرة للغاية.

وفي الآيتين رقم ١٠٩، ١١٠ ذكر كيدا ثالثا لليهود كادوه ضد الرسول ﷺ حيث كانوا يوجهون إليه أسئلة سخيفة، لكي يقلدهم المسلمون فيسألوا رسولهم أسئلة مثلها ويصابوا بهذا المرض، وتزول عظمة دين الله من قلوبهم شيئا فشيئا. ويحذر الله المؤمنين بأن هؤلاء قد هلكوا بسبب توجيههم أسئلة من هذا القبيل إلى موسى، ويريدون أن يجعلوكم غافلين متوقحين كافرين.

وفي الآية رقم ١١١ بين الله طريق الوقاية من شرهم ومكرهم.. وهو التوجه إلى عبادة الله والشفقة على خلقه.

وفي الآية رقم ١١٢ ذكر مع اليهود المسيحيين أيضا – وهم فرع من الدين الموسوي، ولكنهم انفصلوا عنه كلية – وبين أنه إذا كان الله قد عهد عهدا جديدا لقوم جديد، وكُتُبُكم تنبئكم بهذا العهد الجديد، فكيف يمكن الآن نيل النجاة بمجرد القول إننا يهود أو نصارى؟

وفي الآية رقم ١١٣ دحض مزاعمهم، وأخبر أن طريق النجاة هو الانقياد الكامل لله تعالى والشفقة على خلقه.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحكم بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٤)

التفسير: يقول الله تعالى إن هؤلاء الذين يعتبرونكم غير ناجين.. قد ساءت حالهم لدرجة أن اليهود يقولون إن النصارى لا خير فيهم، ويقول النصارى إن اليهود لا خير فيهم.. مع أن كلتا الفئتين تقرأ كتابا واحدا، وتدعي أنها تؤمن بالتوراة. ومن المعلوم أن اليهود لا يعدون الإنجيل –كالنصارى– من الكتاب المقدس.

لقد ذكر الله قبل ذلك ثلاث دعاوى لليهود، والآن ذكر الرابعة. والحق أن هناك شبها بين الأولى والثانية، وبين الثالثة والرابعة. فقد ذكر أولا أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، ثم ذكر دعواهم الثانية بأن الدار الآخرة لهم عند الله من دون الناس. فهذه الثانية أكبر من الأولى، وقد دحض الله كلتيهما. وكانت الثالثة أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، والرابعة أكبر من الثالثة إذ ينفون بها وجود أي خير في غيرهم حيث يدّعون ألاّ خير في النصارى، والنصارى أيضا يدعون مثل دعواهم. والحق أنه حتى من يستحق النار يمكن أن يكون فيه بعض الحسنات، ولكن وجود بعض الحسنات فقط لا يكفي ليستحق الإنسان الجنة، وإنما يدخلها

من رجحت كفةُ حسناته كفةَ سيئاته. أما هؤلاء فقد تشددوا وغلوا في القول بحرمان الناس من الجنة لدرجة أن نفوا وجود أي خير في سواهم.. فيرد الله عليهم قائلا: دعوكم من الحسنات الأخرى.. وأخبروني: أليست تلاوة التوراة من الحسنات؟ وما دام النصارى يتلونها فلماذا تنكرون وجود أي حسنة فيهم؟

وفي الواقع أنه ما من دين إلا ويتضمن بعض الحقائق والمزايا، وإنما يعني قولنا (دين الحق) أنه أكثر الأديان شمولا للمزايا والكمالات، ونزاهة عن النقائص.. وإلا فكل دين لا بد وأن يشتمل على بعض الحقائق. ولكن الأسف أن الناس عموما لا يفهمون هذه الحقيقة الأصلية، مما يؤدي إلى العداوة الدينية الشديدة.

إن الإسلام يعارض بشدة هذه الظاهرة.. ظاهرة ضيق الصدر هذه بين أهل الكتب، فهو – إلى جانب دعواه بصدقه – يعترف أن كل دين يتسم ببعض المزايا، وينصح أتباع الأديان المختلفة بألا يهاجم بعضهم بعضا هجوما أعمى، بل عليهم أن ينظروا إلى مزايا الآخرين أيضا، وألا يتعاموا ويظنوا – تعصبا بدون تحقيق وتدقيق –أن دين غيرهم كله عيوب ونقائص وأنه خال من أي خير وكمال. وقد لام الله اليهود والنصارى في هذه الآية على عداوتهم الشديدة وتعصبهم الأعمى. والحق أن الناس لو عملوا بتعليم القرآن هذا لتغيرت خريطة العالم، وانمحى أي أثر للخصومات والفسادات، واستتب الأمن والاستقرار حقا. ذلك أن أساس الخصومات الدينية إنما هو سوء الفهم هذا. فالناس يندفعون إلى مهاجمة دين آخر بدون أدنى تدبر في تعاليمه، مما يثير ثائرة البغض والانتقام في نفوس أهل ذلك الدين ضد دين المهاجمين، وهكذا يُحرمون من فرصة التدبر في دين الآخرين في هدوء وبعد عن التعصب. كل واحد يهاجم دين الغير بدون أدنى تدبر بناء على روايات أعداء ذلك الدين، ويعد عقائده غير منطقية ومجموعة أوهام غير قابلة للعمل، بل مخلة بأمن الدنيا.. ويتنفر من ذلك الدين. مع أنهم لو تدبروا في أديان أخرى بصدر رحب لوجدوا في كل دين بعض المزايا وبعض النقائص، ماعدا "دين الحق " الذي يكون منزها من كل عيب ومنقصة. ولا بد أن يؤدي بهم هذا التدبر الهادئ إلى أمن وأمان وحب ووئام.

لقد تفشت ظاهرة الاعتداء على أديان الآخرين في عصرنا هذا لدرجة أن أصبحت شغلا شاغلا بين الناس. مع أن نتائجه خطيرة جدا للعالم كله. وقد نبه القرآن الكريم في هذه الآية إلى التخلص من هذا العيب بصفة مبدئية.

والأسف أن الفرق الإسلامية في هذه الأيام أيضا مصابة بهذا المرض. فرغم أنها تؤمن بإله واحد، وبكتاب واحد وبرسول واحد.. إلا أنها تتبادل فتاوى التكفير على أدنى اختلاف.

وفي قوله تعالى (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم).. يبين أنه ليس اليهود والنصارى وحدهم الذين أصابهم المرض، وإنما سائر الجهال الذين لا يعلمون علما حقيقيا يهاجم بعضهم بعضا بمثل هذه الهجمات.. أي يتناسون تماما محاسن الغير، ولا يذكرون مساوئ أنفسهم، في حين أنه لا يمكن أن يكون أحد مؤمنا بالله ومع ذلك يكون خاليا من أي خير. كيف يمكن أن يوجد في الدنيا شيء لا جدوى ولا خير فيه والقرآن يعلن أن الله تعالى لم يخلق أي شيء من دون فائدة وجدوى؟ بل لقد اعترفوا الآن بفوائد سموم الحيّات والعقارب. أفليس من الظلم في حق الله ألا نتوقع في الإنسان أي خير.

قوله تعالى (فالله يحكم بينهم يوم القيامة).. يعني أن الذين قالوا إن اليهود لا خير فيهم أو أن النصارى لا خير فيهم.. لم يصيبوا في قولهم. نعم، فيهم بعض النقائص، ولأجل ذلك بعث الله نبيه محمدا ﷺ ليصلح عوجهم. والحق أن حسناتهم قلّت وسيئاتهم كثرت، ومن سنة الله عند كثرة السيئات وقلة الحسنات وتفشي الفساد في العالم أن يبعث نبيا من عنده.. لتقليل السيئات وتكثير الحسنات وليوثق العباد صلتهم بربهم من جديد.